

مَفْهُومَاتُ الْإِسْلَامِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

للدكتور
أحمد محمد حنا

السنة الواحد والثلاثون - الكتاب الثاني ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

سلسلة البحوث الإسلامية

مقومات الإنسانية

فى

القرآن الكريم

للدكتور أحمد إبراهيم مهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

●● تقديم :

لفضيلة الأستاذ / الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ورضى الله تعالى على آله وأصحابه والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد .

فقد شاءت إرادة الله الرحيم بعباده أن ينزل القرآن العظيم ، على سيدنا محمد خاتم الرسل ، فبشر به ، وهدى إليه ، حتى قامت دولة الإسلام على أقوى ما تقوم دولة من دعائم ، أرسى قواعدها هدى رب العالمين .

فهدى العقول إلى التفكير المتزن ، وهدى العواطف إلى التذوق السامى وهدى الفرد إلى السلوك الأمثل ، وهدى الأسرة إلى المودة الكريمة وهدى المجتمع إلى الحياة الفاضلة ، يقول عز من قائل ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾ « النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥ »

ولقد شهد الوجود الإنسانى هداية القرآن الكريم للإنسانية ، وجعله الله عز وجل دستورا كاملا وشاملا بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بين حكمها سواء فى ذلك شئون العقيدة أو العبادة أو السياسة

أو الإجتماع أو الإقتصاد، أو الحرب أو السلم، أو التشريع، إلى آخر مايتصوره الإنسان من شئون الإنسان، يقول تعالى واصفا كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، «سورة الحل آية ٨٩» ولقد قام هذا المجتمع المسلم على المحبة والإبثار، والمودة والرحمة، فصار المسلمون جميعا جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وهكذا تحول الشعور الفردى الأنانى إلى شعور جماعى إنسانى فى ظل تعاليم السماء وغاب فى هداية القرآن الكريم للإنسانية كل شعور بالعنصرية، فكان صهيب الرومى، وسلمان الفارسى، وبلال الحبشى، أخوة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى التوادد والتعاطف، والتضامن، والوحدة.

لقد صنعتهم هداية القرآن الكريم على رضوان من الله فكانوا نموذجاً يشهد بأن التى هى أقوم هى التى يدعوا إليها القرآن الكريم وقد شملت هداية القرآن الكريم جوانب الحياة فى الدنيا والآخرة فهو فى الدنيا يزيكهم ويعلمهم الحكمة ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فيكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وفى الآخرة نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قُتْرٌ وَلَا ذُلٌّ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «يونس آية ٢٦» إنها

حياة ممتدة بظلها القرآن الكريم بالهداية في شطريها : بالعبادة في دار
الفناء ، والسعادة والخلود في دار البقاء .

وهذا الكتاب الذى تقدمه لخصرات القراء وعنوانه «مقومات
الإنسانية فى القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ الدكتور . أحمد ابراهيم مهنا
قد بذل فيه صاحبه جهدا مشكورا وألقى فيه أضواء كاشفة على جوانب
هامة من هداية القرآن الكريم للحياة الإنسانية .

ولما كان هذا المؤلف القيم قد نفذت نسخه من أيدى القراء كان هذا
مدعاة لإعادة طبعه من جديد لما فيه من النفع الكثير والخير العميم .
والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من التمس علما ، وأراد خيرا ،
وأن يجزى مؤلفه كل خير بما قدم للإسلام والمسلمين .
والله الهادى إلى سواء السبيل .

فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

السيد وفا حسن أبو عجور

مقدمة

ميز الله سبحانه وتعالى النوع الإنساني عن غيره من المخلوقات بما عهد إليه من رسالة أوجب عليه القيام بها ، تلك الرسالة التي عبر عنها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ ^(١) .

والخلافة في الأرض - كما نفهمها من آيات الله البينات - تعنى تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها ، والعمل على إظهار عظمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع بما خلق الله .

والقيام بهذه الرسالة التي أؤتمن الإنسان عليها يستلزم :

١ - أن يكون له من الخبرة بما يمكنه من أدائها ، وقد أنعم الله عليه بما يحتاج إليه في هذا السبيل ، فمنحه القدرة على التعلم والانتفاع بكل ماتقع حواسه عليه حين منحه المعرفة التامة لخصائص الأشياء كلها ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۖ ﴾ ^(٢) .

٢ - وأن تخضع له المخلوقات الأخرى ليتم انتفاعه بها كما ينبغي ، وتلك نعمة أسبغها الله عليه إذ سخرها له وأساس قيادها لنفعه .

(٢) البقرة ٣١

(١) البقرة ٣٠

وبهذا صار الإنسان مكلفاً بأن يعمل كل ما من شأنه أن يعينه على أداء الرسالة التي نيّطت به، ومكلفاً كذلك بأن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يقطع عليه الطريق المؤدى إلى الغاية المذكورة، ومن هنا كان الأمر والنهي فيما جاء من الله من رسالات لهداية خلقه والأخذ بيدهم فيما طلب منهم تحقيقه.



وإذا كان من خلق الله ملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

فإن الإنسان قد خلق على نحو آخر أرادته الحكيم الخبير، إذ جعله على طبيعة صالحة للميل إلى الخير كما أنها صالحة للميل إلى الشر، فهو غير معصوم من اقتراف الذنوب، وصدق الله حيث يقول:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٢).

وحيث يقول:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾^(٣).

(١) التحريم ٦ (٢) الشمس ٧ ، ٨ (٣) الإنسان ٢ ، ٣

و قرن سبحانه صلاحية طبيعته للفجور والتقوى بمنحه القدرة على تحقيق ما تميل إليه نفسه وبين له أن نتيجة اختياره وثمره عمله ستعود عليه، ومن نوع ما عمل :

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾^(١) .

فالإنسان إذاً مسئول عن عمله ، وهو مقررره الكتاب الكريم في مثل قول الله تبارك وتعالى :

﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾^(٢) .

والمسئولية تتطلب الإرادة الحرة ، وقد وهبها الله لعباده من بنى الإنسان ، لأنه سبحانه عادل لا يظلم ، ومن هنا أهدر كل ما يأتيه الإنسان عن إكراه وقسر في جانب الإيمان والكفر سواء ، فمن أكرهه على أن ينطق بكلمة الكفر فلا حرج عليه وهو مصداق قوله تعالى :

﴿ من كفر من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾^(٣) .

ومن آمن تحت ضغط الظروف القاهرة ودون إرادة منه فإيمانه مردود عليه ، ففرعون ظل سادراً في غيه ينادى أنا ربكم الأعلى :

﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾^(٤) . ولكن إيمانه رد عليه وقيل له :

(١) الشمس ٩ ، ١٠ (٢) الطور ٢١ (٣) النحل ١٠٦ (٤) يونس ٩٠

﴿وَالآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنَكَ
لَتَكُونَ لِمَن خَلْفَكَ آيَةً﴾ (١).



وإذا كانت طبيعة الإنسان صالحة للميل إلى الخير وللميل إلى الشر،
فإن الدارس للكتاب الكريم يستطيع أن يستنتج أن الميل إلى الخير هو
الجانب الأغلب في هذه الطبيعة، وأنها لو تركت وشأنها دون أن
تتكالب عليها عوامل الفساد لما حادت عن الطريق المستقيم، وهو
ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾ (٢).

وعوامل الفساد والشر كثيرة، منها ما يكمن في نفس الإنسان ويتمثل
في الميل التي تمكنت بفعل الزمن وتأثير البيئة حتى صارت جزءاً من
طبيعته يصدر عنها كثير من تصرفاته، ومنها ما يأتيه من خارج نفسه
ويتزعمها إبليس وجنوده، ذلك المخلوق الذي أبى أن يسجد لآدم إذ أمره
الله بذلك، والذي طرد من رحمة الله وحلت عليه لعنته بسبب عصيانه
هذا، وأقسم أن يكرس حياته لإيقاع آدم وأبناء آدم في معصية الله،

(٢) الروم ٣٠

(١) يونس ٩١ ، ٩٢

وقال للخالق جل وعلا:

﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾^(١).

والإنسان الذى يبغي الاحتفاظ بإنسانيته عليه أن يصارع هذه القوى، وأن يتحصن بما يرد هجماتها ويضعف تأثيرها، ومن رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم دون إمداد بفضله عوناً منه لهم فى صراعهم المستمر طول وجودهم فى هذه الحياة، فلقد أنار لهم الطريق، وبين لهم المعالم، وتعهدهم فى أطوار حياتهم بالرسالات التى بينت لهم ما تتطلبه الحياة الصالحة فى كل عصر، وصدق الله إذ يقول:

﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾^(٢).

وكان آخر هذه الرسالات تلك التى اصطفى لها خاتم أنبيائه ﷺ وبين حدودها فى كتابه الكريم الخالد، ووعد، وهو الذى لا يخلف الوعد - بأن يحفظه مما لحق بغيره من التبديل والتحريف والمسخ، وصدق العلى العظيم حيث يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(٣).

وبهذا قطع طريق الاعتذار على كل من يتخذ إلهه هواه، ولا ينتفع بما أنعم الله عليه من عقل يعينه على التمييز بين الحق والباطل، ومن هدى

(٣) الحجر ٩

(٢) فاطر ٢٤

(١) الأعراف ١٦، ١٧

يساعده على التغلب فى ميدان الصراع مع قوى الشر الباغية، وذلك
مصدق قوله تعالى :

﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل،
وكان الله عزيزاً حكيماً﴾^(١) .



يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من
الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾^(٢) .
وتلك منحة كريمة من رب كريم، توجب الشكر لمانحها سبحانه،
وشكره والاعتراف بفضلته هو الحد الفاصل - فى عرف القرآن الكريم -
بين الإنسان الذى آمن بربه وحاول جهده أن يسير على ما رسمه له
منتفعاً بكل ما وهبه الله من نعمة السمع والبصر والفؤاد، وذلك الذى
تنكب الطريق وضل فى متاهات الهوى والشهوة، وأصم أذنيه عن
سماع الحق، وعطل نعمة العقل فلم ينتفع بها، فأنحدر إلى مستوى لا
يليق بالمخلوق الذى كرمه الله، هذا الصنف الذى يقول القرآن فيه .

(٢) (الإسراء ٧٠)

(١) (النساء ١٦٥)

﴿أرأيت من اتخذ إليه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا﴾^(١) .

وهو نفسه الذى يقول فيه القرآن كذلك :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون﴾^(٢) .

فالإنسانية الحققة لها مقوماتها التى لا توجد بدونها ، وهذه المقومات تستمد حياتها - كما يفهم من الكتاب الكريم - عن طريق الحواس التى تؤتى ثمرتها ، وعن طريق العقل الذى يقود إلى الصراط المستقيم .
ولا يصح فى عرف المنطق السليم أن تكون تلك المقومات مادية أو مما تتطلبه المادة ، وإنما هى معان سامية تعلو بمن يمارسها إلى ما يتفق مع مكانة الإنسان الفاضل الذى جعله الله خليفة فى الأرض .



ويحدثنا تاريخ العلوم أن علماء الأخلاق وعلماء التربية والفلاسفة فى كل عصر حاولوا جميعاً تحديد هذه المعانى رجاء الوصول إلى رسم الصورة الكاملة للإنسان الفاضل على حد تعبير كل منهم ، وبالرغم مما

(٢) الأعراف ١٧٩

(١) الفرقان ٤٣ ، ٤٤

نجد في أفكارهم من خلافات ، تصل أحيانا إلى حد التناقض ، فإن الهدف الذى كانوا جميعاً يقصدون إليه هو تحديد صفات المجتمع الإنسانى الذى يليق بهذا النوع المميز بنعمة العقل والتفكير .

ولما كان القرآن الكريم هو هدية الله إلى خلقه ، فهو فى يقيننا خير مصدر يرسم لنا الصورة المتكاملة للإنسان الفاضل كفرد مستقل فى مسئوليته ، وكعضو فى جماعة تسعى إلى تحقيق ما وكل إليها من رسالة سامية .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نضع أمام القارئ ما يستلزمه وجود الإنسانية الفاضلة من مقومات ، مستمدين ذلك من الكتاب الكريم ومستعينين بالله فى أن يهدينا إلى الصواب لفهم كتابه . وراjin منه أن يوفقنا للعمل بما فيه . إنه نعم المولى ونعم النصير . ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا . وإليك المصير .

أحمد إبراهيم مهنا

تحديد المعانى

التي يعتبرها الكتاب الكريم مقومات للإنسانية الفاضلة

ولتحديد هذه المعانى كان لا بد لنا من أن نتعرف على أسلوب القرآن في حديثه إلى الإنسان وفي حديثه عنه في كل ما يتصل بتطورات حياته منذ بدايتها حتى اللحظة التي تنتهى فيها وقد وجدنا :

١ - أن هذه المعانى لا يجوز أن يعزى وجودها إلى المرحلة الأولى من حياة الإنسان ، لأن أفراد النوع الإنسانى جميعا مشتركون في خصائص هذه المرحلة ، لا فرق في ذلك بين من آمن بعد ذلك ومن كفر ، فكل منهم خلق من ذكر وأُنثى^(١) ، كما قرر الكتاب الكريم في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى ﴾^(٢) . وكل منهم خلق من نفس واحدة وخلق منها زوجها كما جاء في قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾^(٣) . وكل منهم خلق من سلالة من طين ، ومر بالأطوار التي انتهت بولادته طفلا . وهى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار

(٣) النساء ١

(٢) الحجرات ١٣

(١) ماعدا آدم وزوجه وعيسى عليه السلام

مكن، ثم خلقنا النطفة علقه، فخلقنا العلقه مضغه، فخلقنا المضغه عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿١﴾.

وفى قوله عز وجل :

﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا...﴾ (٢).

وكل منهم ينطبق عليه قول الله تبارك وتعالى :

﴿الله الذى خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ (٣).

وكل منهم يندرج تحت قوله عز وجل :

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا

هديناه السبيل﴾ (٤).

وقوله سبحانه :

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ (٥).

٢ - وكما أن هذه المعانى لا يجوز أن تعز إلى المرحلة الأولى من حياة

(٣) الروم ٥٤

(٢) الحج ٥

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤

(٥) التين ٤

(٤) الإنسان ٢، ٣

الإنسان، فكذلك لا يجوز أن نعزى إلى المرحلة الأخيرة من مراحل حياته، ذلك لأن الشأن فيها كالشأن في الأولى من أن أفراد النوع الإنساني جميعا متساوون في تلك المرحلة ونعنى بها نهاية الحياة على هذه الأرض بالموت مهما اختلفت أسبابه، وتعددت طرقه وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ^(١).

وحيث يخاطب عباده، فيقول :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ ^(٢).

وعبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بوضوح كذلك حينما خاطب الله رسوله ﷺ بقوله تعالى :

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مّت فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت ﴾ ^(٣).

ويقول سبحانه :

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ ^(٤).

٣ - وكذلك لا يجوز أن تعز هذه المعاني إلى النعم التى أسبغها الله على عباده مما لا دخل لهم فيه ولا يدخل تحت قدراتهم فإذا أراد الله لإنسان

(١) آل عمران ١٨٥ (٢) النساء ٧٨

(٣) الأنبياء ٣٤، ٣٥ (٤) الزمر ٣٠

الغنى وأراد لآخر الفقر فلا صلة لهذا الفقر أو ذاك الغنى بالمعاني الإنسانية، مادام المرء لم يستخدم هذا الغنى أو ذاك الفقر في تصرفاته التي يسأل عنها، وكذلك يقال فيما يتعلق بنعم الله العامة التي أسبغها على عباده وسخرها لهم مما نلمس فيه الشمول والتعميم بالنسبة للنوع الإنساني كله، كالذي نجده في قول الله تبارك وتعالى:

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً﴾^(١).
وفى قوله سبحانه:

هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذراً لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون﴾^(٢).

٤ - لم يبق أمامنا إذا سوى المرحلة التى يبلغ الإنسان فيها رشده ويستخدم فيها إرادته، ويسجل فى عداد المسؤولين عن تصرفاتهم، فتلك هى المرحلة التى يختلف فيها الفرد عن الفرد، وينقسم الناس فيها إلى

(٢) النحل ١٠ - ١٣

(١) الإسراء ٧٠

مؤمن وكافر، أو طائع وعاص، أو مهتد وضال، وتلك هي المرحلة التي نراها في كثير من آيات الله البينات وقد حكم على الإنسان فيها بأحد الوصفين.

وقد يلاحظ أن القرآن الكريم عندما يقسم الناس إلى فريقين متقابلين في هذا المجال، إنما يفعل ذلك بعد أن يذكر بعض النعم التي أسبغها الله على عباده جميعاً مما يستلزم الشكر والاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل، ففي قوله تعالى:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل﴾^(١).

نلمس المساواة بين الأفراد جميعاً في كل ماذكر، ونجد أن النعم التي تحدث القرآن عنها لا دخل للفرد فيها، ولا إرادة له في الحصول عليها أو الحرمان منها، وإنما هي هبة من الله له، أما ما بعد ذلك من قوله سبحانه في نفس الآية:

﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ فهو ينطق بإسناد الشكر أو الكفر إلى الإنسان، وهو ما يحقق التفرقة بين من يعترف بالجميل ومن يجحد الفضل ولا يقدر النعمة.

(١) الإنسان ٢، ٣

وفى قوله تعالى :

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾^(١).

لا تخطيء المساواة التامة في ذلك بين أفراد النوع كله ، ولكن التفرقة جاءت في قوله سبحانه :

﴿ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾^(٢).

وهي تفرقة مشروعة ومسيبة .

وفى قوله عز وجل :

﴿ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾^(٣).

تبرز المكانة التي أعدها الله لهذا النوع (بنى آدم) في هذه الحياة ، وهي مرحلة الاختيار والابتلاء ، وكما قرر القرآن وقررت الأديان السماوية جميعا ، لا بد من نتيجة لهذه المرحلة ، ولا بد من تفرقة بين من شكر النعمة ومن جحد بها وأنكرها ، وهو ما نجده في الآيتين التاليتين :

﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتىلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في

(٣) الإسراء ٧٠ .

(٢) التين ٥ ، ٦

(١) التين ٤

الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴿١﴾ .

وفيما قصه الكتاب الكريم من شأن آدم عليه السلام، نجد هذا المنهج واضحاً جليلاً، أقرأ إن شئت قول الله سبحانه :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٣) .

فهداية الله إلى عباده والمثلة فى رسالاته وهديه عامة شاملة ، أما أثره هذه الهداية فى الناس فيختلف باختلاف موقفهم منها وعليهم تبعات هذا الموقف .

وهذا الذى وجه إلى آدم فى أول عهد الإنسان بالحياة ، وجه إلى ذريته

(١) الإسراء ٧١ ، ٧٢ (٢) البقرة ٣٧ - ٣٩ (٣) طه ١٢٣ ، ١٢٤

كذلك، يقول جل شأنه :

﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾^(١).

ونخلص من ذلك كله إلى أن المعانى التى تتحقق الإنسانية بوجودها إنما هى مجموعة السمات الطيبة لرحلة الابتلاء والاختبار، وبمعنى آخر أنها الحصيلة التى تنطق بأن من اتصف بها وحقق مضمونها هو الإنسان الذى تحمل مسئوليته كاملة، وكان أميناً فى أداء الأمانة كما طلب منه.

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء بالمؤمنين تارة، وبالتقين أخرى، وبأولى الأبواب تارة ثالثة.

وبيان القرآن واضح فى أن التقوى لا توجد بدون إيمان فهو منها بمنزلة الأساس الذى لا يستغنى عنه، وواضح كذلك فى أن الوصف بأولى الأبواب لا وجود له إلا فى ظل إيمان الموصفين به.

ومن هنا يمكننا أن نقول مطمئنين، إن الإيمان هو الأساس فى تحقيق الإنسانية فى الفرد، وبدونه لا يكون لها وجود.

وإذا كان كثير من الأوامر والنواهي وجهت إلى النوع الإنسانى كله

(١) الأعراف ٣٥ ، ٣٦

فى آيات القرآن الكريم، فإن لغة القرآن تنطق بأن الذى ينتفع من ثمار أمثاله لهذه التوجيهات إنما هم الذين آمنوا بربهم فكان إيمانهم أساسا قام عليه بناء أعمالهم الطيبة، أما من كفر بربه فلا ثمرة لأعماله لفقدانها الأساس الأصيل الذى تقوم عليه، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾^(١).

وقوله سبحانه :

﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، لا يقدرّون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد﴾^(٢).

وقوله عز وجل :

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾^(٣).

ومن هنا يمكننا أن نعتبر كل ما أمر الله باتباعه من أخلاق كريمة ومثل

(٣) النور ٣٩

(٢) ابراهيم ١٨

(١) آل عمران ١١٦ ، ١١٧

عليا لبنات في بناء مقومات صرح الإنسانية التي تحاول تحديدها،
ونستطيع أن نقول إنَّ تتبع الآيات التي تحدد أوصاف المؤمنين والآيات
التي ترشد وتوجه إلى الطريق القويم، سواء أكان عن طريق الأمر بفعل
شيء أم عن طريق النهي عن فعل شيء، تسهل مهمتنا وتثير طريقنا، وما
دام الإيمان هو الأساس للصرح كله وبدونه لا يوجد البناء، فمن المنطق
أن تكون عناصر الإيمان هي المعاني التي نبحت عنها، وبتوضيح هذه
العناصر يتضح لنا ما لا بد منه للاحتفاظ بوصف الإنسانية التي يعنيها
القرآن الكريم.

الإيمان

والإيمان في لغة القرآن الكريم حقيقة مركبة من التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، نجد ذلك في قول الله تبارك وتعالى:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب والنبين﴾^(١).

ونجده في قوله عز وجل:

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فقد ضل ضلالا بعيدا﴾^(٢).

وإذا كانت آية البقرة قد أجملت في لفظ الكتاب والنبين، فإن آية النساء قد أوضحت أن المراد بالكتاب يشمل آخر الكتب المقدسة وهو القرآن الكريم، وذلك بالنص عليه في قوله تعالى:

﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ كما يشمل جميع ما نزل من كتب الله قبله، والكتاب الذي أنزل من قبل، وأوضحت كذلك أن المراد بالنبين يشمل جميع أنبياء الله دون تفرقة بين أحد منهم. وهو ما

(٢) النساء ١٣٦

(١) البقرة ١٧٧

نجدّه فى الآيات الكريمة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بَعْضُ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

ووجوب الإيمان بالكتب المنزلة جميعا ينطق برأى القرآن فى الصلة بين هذه الكتب بعضها وبعض. وأنها جاءت كلها من مصدر واحد، واشتملت على أصول موحدة. وتهدف إلى هداية البشر وإنارة الطريق أمام بنى الإنسان وهو مانجده فى حديث القرآن الكريم عن كتب ثلاثة منزلة فى قوله تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٢).
﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

(١) النساء : ١٥٠-١٥٢

(٢) المائدة : ٤٤

(٣) المائدة : ٤٦

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(١).

ومن هنا كان الدين واحداً عند الله، هو الإسلام، وكان الإيمان بجميع رسل الله وأنبيائه دون تفرقة بين أحد منهم فرضاً على أتباع محمد ﷺ وذلك هو قول الله سبحانه:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

الإيمان بالله :

والإيمان بالله لا بد وأن يشمل الإيمان بوجوده سبحانه وبوحدانيته وقدرته وإرادته وعلمه الخيط وعدله الشامل وكل ما وصف به نفسه سبحانه في مثل قوله عز وجل:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

(١) المائدة ٤٨ (٢) البقرة ١٣٦ (٣) البقرة ٢٥٥ (٤) آل عمران ٢٦

﴿سبح لله ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، هو الأول والآخِر، والظاهر والباطن، وهو بكل شىء علِيم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج فى الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يرتج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير﴾^(١).

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب وال . هادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾^(٢).

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾^(٣).

والإيمان بالله هو العنصر الأهم فى الإيمان المطلوب، لأنه أساس للإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين، وبدونه لا يتحقق الإيمان بغيره، ومن هنا نجد أن مغفرة الله تسع كل شىء عدا الإشراك به كما يقرر الكتاب الكريم فى قول الله تبارك وتعالى :

(١) الحديد ١ - ٤ (٢) الحشر ٢٢ - ٢٤ (٣) الإخلاص

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١).

والمصدر الأول الذى يركز عليه الإيمان بالله هو العقل، منحة الله إلى الإنسان، والتي مُميزَ بها عن غيره من المخلوقات الأخرى وهياته لتحمل الأمانة التى أشفقت منها السموات والأرض والجبال، فالإيمان بالله - فيما يؤخذ من القرآن الكريم - يستلزمه المنطق السليم والنظر الصائب، ولا يحتاج إلى دليل خارج عن النفس، وما يحيط بالإنسان من مخلوقات تتجلى فيها عظمة الخالق وقدرته الشاملة وتصرفه المطلق تبعاً لإرادته النافذة وحكمته السامية.

ولهذا لا نجد فى القرآن آية تناقش المؤمنين في أسباب إيمانهم بالله، أو تحاول التدليل على صحة عقيدتهم بطريقة مباشرة، فكل ظاهرة من ظواهر الكون آية للمؤمن بربه يزداد بها إيمانه ولا يؤسس عليها، وتقوى بها عقيدته ولا تبدأ عندها. نقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ، مَا يَسْكُنْنَ إِلَّا اللَّهَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١) النساء ١١٦ (٢) النحل ٧٩

لآيات لقوم يؤمنون ﴿١﴾ .

﴿أو لم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ ﴿٢﴾ .

﴿أو لم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ ﴿٣﴾ .

فالمحدث عنهم في هذه الآيات هم الذين كفروا بالله . ولم يصيخوا إلى صوت العقل ونداء الواقع ، ولم يحاولوا فهم الكون الذى يعيشون فيه ويعمون بما وهبهم الله من فضل ، وذكر المؤمنين فى نهاية كل آية إنما هو لبيان انتفاعهم بما تنطق به من مظاهر قدرة الله ورحمته وتصرفه المطلق فى تثبيت عقيدتهم وتجديد إيمانهم بخالقهم ، وهذا هو نفس المعنى الذى نفهمه من قوله تعالى :

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ ﴿٤﴾ .

ومن قوله جل شأنه :

﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ ﴿٥﴾ .

أما أسلوب القرآن مع الكافرين فيختلف عن ذلك ، إذ يناقشهم فى أسباب كفرهم ، ويقيم الدليل تلو الدليل على خطأ الطريق الذى

(١) النمل ٨٦ (٢) الروم ٣٧ (٣) الزمر ٥٢ (٤) الذاريات ٥٥ (٥) الاعراف ٢

سلوكه وعلى مخالفته لما تقضى به الفطرة ويهدي إليه العقل ، ومن ذلك قوله عن الذين أنكروا وجود الله .

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ﴾^(١) .

ويوجه إليهم الحديث الذى ينطق بالدليل الواضح فيقول :

﴿ أفرأيتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾^(٢) .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾^(٣) .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾^(٤) .

﴿ أفرأيتم النار التى ترون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾^(٥) .

وكما تحدث القرآن عن الذين أنكروا وجود الله وتحدث إليهم ، فقد تحدث عن هؤلاء الذين أنكروا وحدانيته فقال :

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾^(٦) .

أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله

(١) الطور ٣٥ ، ٣٦	(٢) الواقعة ٥٨ ، ٥٩	(٣) الواقعة ٦٣ ، ٦٤
(٤) الواقعة ٦٨ ، ٦٩	(٥) الواقعة ٧١ ، ٧٢	(٦) الإسراء ٤٢

لفسدنا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴿١﴾ .

﴿وما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ ﴿٢﴾ .

ويوجه الحديث إلى من تركوا عبادة الله إلى عبادة غيره فيقول :

﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يصرون ﴾ ﴿٣﴾ .

ويقول :

﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرؤنى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ ﴿٤﴾ .

ثم يتحدث عنهم فيبرز أن ما فعلوه لا يتفق والمنطق السليم الذى يقتضيه العقل فيقول :

﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾ ﴿٥﴾ .

فإذا استقر الإيمان بالله على النحو الصحيح المنبعث عن العقل السليم ،

(١) الأنبياء ٢١ ، ٢٢ (٢) المؤمنون ٩١ (٣) الأعراف ١٩٧ ، ١٩٨
(٤) فاطر ٤٠ (٥) الفرقان ٣

فقد مهد الطريق للإيمان بالرسول صلوات الله وسلامه عليهم، لأنه
سبحانه وتعالى أيد كل واحد منهم بما يؤكد صدقه، وتصديق الرسول
ﷺ يقود إلى الإيمان بما يبلغ من كتاب أوحى إليه.
وبما يخبر من أمور لا تقع تحت الحس، ولا مصدر للعلم بها إلا خبر
المعصوم، والإيمان بالملائكة من هذا القبيل.

الإيمان بالملائكة

والذى يؤخذ من القرآن بخصوص الملائكة :

١ - أنهم خلق من خلق الله يختلفون عن الإنسان فى طبيعتهم ، وذلك عندما يقرر أن من سنة الله أن يكون الرسول والمرسل إليهم من طبيعة واحدة ، قال الكفار فى جدلهم مع الرسول ﷺ :

﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ ^(١) . فكان من جملة الرد عليهم قوله تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ^(٢) . وقال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ^(٣) .

٢ - والملائكة مطيعون لله دائما بخلاف الإنسان ، يقول الله تعالى عنهم :

﴿ عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾ ^(٤) . ويقول سبحانه :

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ^(٥) .

(٣) الإسراء ٩٥

(٢) الأنعام ٩

(١) الأنعام ٨

(٥) النحل ٤٩ ، ٥٠

(٤) الأنبياء ٢٦ - ٢٨

٣ - والملائكة هم رسل الله إلى من يشاء من عباده :

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة
مثنى وثلاث ورباع ﴾^(١) . ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو
من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على
حكيم ﴾^(٢) .

وعن طريق الوحي الذي يحمله الملك تلقى الأنبياء والرسل ما شاء الله
أن ينعم به على عباده من كتبه المقدسة وشراعة الهادية وفي هذا يقول
القرآن الكريم : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده
أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾^(٣) .

ونقرأ بالنسبة لوحي القرآن نفسه إلى الرسول محمد ﷺ :

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين
يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾^(٤) .

ونقرأ ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى
وبشرى للمسلمين ﴾^(٥) .

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من
المنذرين ﴾^(٦) .

(١) فاطر ١	(٢) الشورى ٥١	(٣) النحل ٢
(٤) البقرة ٩٧	(٥) النحل ١٠٢	(٦) الشعراء ١٩٢ - ١٩٤

وكما أن الملائكة كانت رسل الله إلى أنبيائه فيما يتعلق بالوحي وتعاليم الأديان. فقد كانوا رسله كذلك بالبشرى إلى بعض خلقه. نقرأ في قصة رسول الله زكريا عليه السلام :

﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله ييشرك ببيحى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾^(١).

ونقرأ فى قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾^(٢).

﴿ وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾^(٣).

وجاء فى قصة مريم : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾^(٤).

وكان هذا تمهيدا لما جاء بعد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله ييشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾^(٥).

وإذا كانت البشرى لزكريا وإبراهيم - عليهما السلام - قد حملت تحقيق أمنية كان من البعيد أن تكون لحالة كل منهما، فإن البشرى التى

(٣) هود ٧١

(٢) هود ٦٩

(١) آل عمران ٣٩

(٥) آل عمران ٤٥، ٤٦

(٤) آل عمران ٤٢

حملتها الملائكة إلى مريم كانت تتعلق بتحقيق شيء مستحيل في حكم العادة.

٤ - ومن الملائكة من وكله الله يقبض أرواح من يريد إنهاء حياته في هذه الدنيا. ﴿وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾^(١).
﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم، ثم إلى ربكم ترجعون﴾^(٢).

٥ - ويؤخذ من القرآن أن مهمتهم ليست محصورة في قبض الأرواح وإنهاء حياة الإنسان، وإنما هم مأذونون في تحية الصالحين من عباد الله وتبشيرهم - عند الموت - بما ينتظرهم من جزاء حسن.
﴿الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾^(٣).

ومأذونون كذلك في توجيه اللوم والتوبيخ إلى من ظلم نفسه ولم يحاول الانتفاع بنعمة الله عليه. ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾^(٤).

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم، أخرجوا أنفسهم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾^(٥).

(٣) النحل ٣٢

(٢) السجدة ١١

(١) الأنعام ٦١

(٥) الأنعام ٩٣

(٤) النساء ٩٧

وليس هذا فحسب ، وإنما هم مآذنون كذلك بضرب وجوه الكفار وأدبارهم . يقول القرآن الكريم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ^(١) .
ويقول : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ^(٢) .

ويعد أن يفصل الله بين عباده ، وينعم أهل الجنة بالجنة ويشقى أهل النار بالنار ، نجد خزنة الجنة من الملائكة يستقبلون أهلها بالبشرى الطيبة :
﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ^(٣) . ثم يكررون التحية بعد أن يستقبر بهم المقام ويدخلون عليهم من كل باب ، ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ^(٤) .

وأما بالنسبة لأهل الناس فإن خزنتها - وهم ملائكة غلاظ شداد يلقون فى وجوههم بما يزيدهم من حسرتهم ويضاعف من همومهم ، يقولون لهم : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ ^(٥) .

ويقول القرآن الكريم فى وصف جهنم ﴿ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ ﴾ ^(٦) .

(٣) الزمر ٧٣

(٢) محمد ٢٧

(١) الأنفال ٥٠

(٦) الملك ٨

(٥) الزمر ٧١

(٤) الرعد ٢٤

٦ - والملائكة جنود لله ينصر بهم من يشاء من عباده وقد أخبرنا الكتاب الكريم أن الله أمد المسلمين في بعض حروبهم بالملائكة استجابة لاستغاثتهم به وذلك قوله تعالى :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾^(١).

وأخبرنا القرآن كذلك أن رسول الله محمداً ﷺ هداً من روع أصحابه بقوله لهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

وينجز الله وعده ويمد المؤمنين بملائكته ويسجل ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ، فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ فَأَضْرِبُوا فُوقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٣).

وكما أخبرنا القرآن عن هذا النوع من نصر الله لعباده المتقين بواسطة جنوده من الملائكة ، وأخبرنا عن نوع آخر من أنواع نصره لهم ، وذلك حين قص علينا ما كان من رسل الله مع نبيه لوط عليه السلام حين ضاق ذرعاً بقومه وبتطاؤلهم عليه وقال في أنه حزينة : ﴿لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ

(١) الأنفال ٩ (٢) آل عمران ١٢٤ ، ١٢٥ (٣) الأنفال ١٢

آوى إلى ركن شديد ﴿^(١)﴾ فيأتيه النصر عن طريق الملائكة إذ ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل، ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتكم، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴿^(٢)﴾.

تلك هى الصورة التى يعطيها القرآن الكريم للملائكة، والتى يجب على المؤمن أن يصدق بجزئياتها ليتم إيمانه المطلوب والممارسون لكتب التفسير يعرفون ما دار من جدل ونقاش حول موضوع الملائكة - فيما يتصل بطبيعتهم وفى تحديد حقيقة الوظائف التى يقومون بها - والذى نميل إليه أن الإيمان بالنصوص الواردة كما هى واجب على المؤمن. وأن البحث عما وراء الألفاظ - مما لا يمكن الوصول إليه عن طريق الإدراك البشرى، وموضوع الملائكة من هذا القبيل - مضية للوقت، ومقطوع بعدم جدواه. وكل مسلم لا يشك فى أن كل ما جاء فى القرآن حق لا ريب فيه، ومما يريح النفس أن نصوص القرآن لا تتعارض مع ما قطع العلم به وأثبتته بالبرهان الذى لا يقبل الجدل. وأن العلماء فى كل ناحية من نواحي المعرفة يقررون أن ما وصل إليه العلم بالفعل لا يقارن بما بقى خافيا علينا. وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ ^(٣).

(٣) الإسراء ٨٥

(٢) هود ٨١ - ٨٣

(١) هود ٨٠

الإيمان باليوم الآخر

أما الإيمان باليوم الآخر، وما يكون فيه من تطبيق عملي شامل للعدالة الإلهية، فهو متوقف على الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عادل وحكيم، والآيات التي تحدثت عن وجوب مجيء هذا اليوم تستند في إثبات ما تحدثت عنه على أن الخالق حكيم ويستحيل عليه العبث، وعادل ويستحيل عليه الظلم، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾^(١).

ويقول سبحانه:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾^(٢).

ويقول جل شأنه:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون﴾^(٣).

ثم يقول:

(١) المؤمنون ١١٥، ١١٦ (٢) ص ٢٧، ٢٨ (٣) الجاثية ٢١

﴿ أفجعل المسلمين كاخچرمين ، ما لكم كيف تحكمون ﴾^(١) .
وكما أن الإيمان باليوم الآخر يتوقف على الإيمان بحكمة الله وعدله
فهو يتوقف كذلك على الإيمان بقدرته الشاملة ، لأنه يستلزم البعث
لكل من مات من بنى آدم ، والبعث الذى أنكره الدهريون أساس
الإيمان به ، هو الإيمان بالقدرة الإلهية عليه .

والآيات التى تحدثت عن إمكانه تستند دائما إلى القدرة وأن الذى
خلق الإنسان أولاً لا يعيه أن يعيد خلقه .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا ، أئنا لمبعثون خلقاً جديداً ، قل كونوا
حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟
قل الذى فطركم أول مرة ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب
لنا مثلاً ، ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم : قل : يحييها
الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ﴾^(٣) .

ويقول جل شأنه :

(١) القلم ٣٥ ، ٣٦ (٢) الإسراء ٤٩ - ٥١ (٣) يس ٧٧ - ٧٩

﴿أفعمينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد﴾^(١).

ويعبر القرآن عن منكرى البعث بأنهم كفار فيقول :

﴿وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم﴾^(٢).

والإيمان فى أى عنصر من عناصره يعود على المرء نفسه بالخير لأن الإيمان بالله - وهو مستند إلى العقل كما أسلفنا القول - يؤكد إنسانيته ، ويحرره من العبودية لغير الله ومن الخضوع لخلق مثله أو أقل منه ، ويسرهن على انتفاعه بما وهبه الله من قوة الإدراك والفهم ، وعلى استحقاقه لأن يكون خليفة الله فى الأرض يعمرها ويشيع الخير والسلام فيها .

والإيمان برسل الله وكتبه ، وما أخبروا به من ملكوت الله وما سيكون فى اليوم الآخر . يقوده إلى الخير ، ويمهد أمامه طريق السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة . وهذا هو منطق القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم ، وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما﴾^(٣).

(١) ق ١٥ (٣) النساء ١٧٠

(٢) الرعد ٥

(٣) ق ١٥

وفى قوله سبحانه :

﴿وَإِذْ تَأْذَنُ رِبْكَم ، لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(١).

وفى قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٢).

وهو نفس ما جاء فى الكتاب الكريم على لسان نبي الله سليمان عليه السلام حين قال :

﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٣).

(٣) النمل ٤٠

(٢) لقمان ١٢

(١) ابراهيم ٧

صفات المؤمنين

والقول بأن الإيمان بعناصره الكاملة يقود الإنسان إلى الخير، ويمهد أمامه طريق السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة يسلمنا إلى البحث عن صفات المؤمنين كما يصورها القرآن الكريم.

والصفات التي تتطلبها القرآن في المؤمن كثيرة، وتشمل كل ما يلزم لصالح العبد كفرد، وما يلزم لصلاحه كعضو في جماعة. كما تشمل كل ما يلزم لإصلاح حال الجماعة المؤمنة في صلاتها الداخلية والخارجية. وليس هذا بغريب، فالقرآن حين يتحدث إلى الجماعة المؤمنة، يناديها بعنوان إيمانها ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. هذا العنوان الذي يميزها عما عداها من الجماعات التي يربطها بنى الإنسان سبب، والذي يفرض عليها من الواجبات ما يحقق خلافتها في الأرض.

وقد جاءت هذه الصفات التي لا يتحقق الإيمان بدونها مبثثة في آيات الكتاب الكريم التي نزلت بعد أن تكون لأتباع محمد ﷺ كيان الجماعة والدولة.



نادى الله سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ بقوله الكريم :
﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تسعا وثمانين مرة في القرآن .

وفيها مجتمعة نجد التشريع الحكيم الذي يؤدي اتباعه إلى تثبيت أركان الجماعة وتقوية بنيانها كأفراد يصلحون من أنفسهم باتباع هدى الله وكجماعة تحاول أن تسود لتقيم العدل وتنشر الإحسان والسلام في الأرض.

. وتتبع الآيات التي بدأت بالنداء المذكور وجد أنها كلها - دون استثناء - نزلت بعد الهجرة، وهالك ثبت بالسور التي وردت فيها وعددها في كل سورة وأرقام الآيات :

اسم السورة	عدد المرات	أرقام الآيات
البقرة	١١	١٨٣، ١٧٨، ١٧٢، ١٥٣، ١٠٤، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٣
آل عمران	٧	١٠٠، ١٠٢، ١١٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦، ٢٠٠
النساء	٩	١٩، ٢٩، ٤٣، ٥٩، ٧١، ٩٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٤
المائدة	١٦	١، ٢، ٦، ٨، ١١، ٣٥، ٥١، ٥٤، ٥٧، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦

أرقام الآيات	عدد المرات	اسم السورة
٤٥، ٢٩، ٢٧، ٢٤، ٢٠، ١٥	٦	الأنفال .
١٢٣، ١١٩، ٣٨، ٣٤، ٢٨، ٢٣	٦	التوبة
٧٧	١	الحج
٥٨، ٢٧، ٢١	٣	النور
٧٠، ٦٩، ٥٦، ٥٣، ٤٩، ٤١، ٩	٧	الأحزاب
٣٢، ٧	٢	محمد
١٣، ١١، ٦، ٢، ١	٥	الحجرات
٢٨	١	الحديد
١٢، ١١، ٩	٣	المجادلة
١٨	١	الحشر
١٣، ١٠، ١	٣	المتحنة
١٤، ١٠، ٢	٣	الصف
٩	١	الجمعة
٩	١	المنافقون
١٤	١	التغابن
٨، ٦	٢	التحریم

وكل السور المذكورة نزلت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وبعد أن بدأت النواة الأولى للدولة الإسلامية بالجماعة الموحدة من الأنصار والمهاجرين بقيادة النبي ﷺ .

والمتبع لأسلوب القرآن في هذا المجال يمكنه أن يقول :
إن هذه الصفات - وإن ذكرت في آيات كثيرة وفي سور متفرقة - قد جمعت في مواضع معدودة بحيث يمكننا أن نعتبرها الأساس في حصر هذه الصفات ، إذ كل ما جاء في الآيات الأخرى يندرج تحت واحدة منها أو يمثل نوعاً من أنواع تطبيقها .

هذه المواضع نجدها في قول الله تعالى :

أ - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾^(١) .

ب - ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢) .

ج - ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿١﴾.

د - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢).
فالصفات التي يجب أن تتوفر في المؤمن الحقيقي - طبقاً لهذه الآيات

هي:

- ١ - خوف الله ووجل القلب عند ذكر الله سبحانه وتعالى .
- ٢ - زيادة الإيمان عندما تتلى آيات الله .
- ٣ - التوكل على الله سبحانه .
- ٤ - إقامة الصلاة .
- ٥ - إيتاء الزكاة .
- ٦ - ولاية المؤمنين .
- ٧ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ٨ - طاعة الله ورسوله .
- ٩ - الإعراض عن اللغو .
- ١٠ - العفة .

(١) المؤمنون ١ - ١١ (٢) الحجرات ١٥

- ١١ - مراعاة الأمانة والعهد.
- ١٢ - رسوخ العقيدة بحيث لا يعتريها شك.
- ١٣ - الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.
- يضاف إلى ذلك صفات مصدرها آيات آخر وجهت إلى المؤمنين الأمر بفعل شيء أو النهي عن فعل شيء ومنها:
- ١٤ - المسألة البناء وعدم الاعتداء.
- ١٥ - العدل في جميع أبعاده.
- ١٦ - الإخلاص في العمل.
- ١٧ - الاعتراف بالجميل.
- ١٨ - قوة الإرادة وضبط النفس.
- وسنحاول - إن شاء الله - تكوين سورة متكاملة لكل صفة منها.

الخوف من الله ووجل القلب

عند ذكره سبحانه

يقول الراغب الأصفهاني في (المفردات في غريب القرآن)
في مادة « خوف »

« الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة » .

وهذا المعنى يوجد في الوجل ، والخشية ، والإشفاق مع إضافة في
تعريف كل بما يميزه عن الآخر ^(١) .

ويقرر القرآن الكريم أن الخوف من مستبعات الإيمان ، فالؤمن يخاف
الله ، ويخاف عذابه ، ويخاف اليوم الآخر لمظنة ما قد يظهر فيه من
تقصيره في الطاعة ، أو لما يبدو فيه ويرز من السيئات التي اقترفها في
حياته .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ذُكِرَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) الوجل استشعار الخوف الخشية خوف يشوبه تنظيم الإشفاق عناية مختلطة بخوف
(مفردات الراغب) .

(٢) آل عمران ١٧٥

ويوضح أن الخوف من سوء العاقبة أحد أوصاف الذين يتمتعون بالعقل السليم، ويندرجون في أولى الألباب، وذلك إذ يقول :

﴿... إنما يتذكر أولى الألباب، الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾^(١).

وبين القرآن أن الذي ينتفع بدعوة الرسول ﷺ هم الذين يخافون نتائج أعمالهم واليوم الذي يحاسبون فيه عليها، يقول سبحانه :

﴿وأُنذِر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع، لعلمهم يتقون﴾^(٢).

ويقول جل شأنه في صدد حديثه عن الساعة :

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾^(٣).

وبين القرآن - كذلك - أن الذين ينتفعون بما سبق فيه من قصص عن الأمم الغابرة وما كان من شأن الله سبحانه وتعالى معهم بسبب ما اقترفوا من سيئات، إنما هم الذين يخافون عذاب الآخرة يقول إليه تبارك وتعالى بعد أن قص من أنباء القرى ما قص :

﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾^(٤).

(١) الرعد ١٩ - ٢١ (٢) الأنعام ٥١ (٣) النازعات ٤٥ (٤) هود ١٠٣

ويقول بعد أن قص علينا شأن فرعون ونهايته :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾^(١).

وبعد أن قص علينا ما حدث لقوم لوط وقريرتهم يقول جل شأنه :

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢).

والخوف من الله يقوى دعائم الإيمان ، فيصبح قوة دافعة للعمل ،

مجددة للنشاط ، يقول الله سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٣).

وليس من شك في أن الجهاد في سبيل الله يحتل الصدارة في قائمة الخيرات التي يسارع إليها المؤمنون الذين يخشون ربهم ويخافون وعيده ، وعن طريقه يكتب الله لهم النصر على أعدائهم ، ويمكن لهم في الأرض ، فليس غريبا إذا ما نجد في القرآن من أن وعد الله لرسله بإهلاك أعدائهم وتمكين الأمر لهم ولأتباعهم مشروط بأن يكونوا ممن يخافون الله ويخافون وعيده ، وذلك حيث يقول الله عز وجل :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي

(٣) المؤمنون ٥٧ - ٦١

(٢) الداريات ٣٧

(١) النازعات ٢٦

ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴿١﴾ .

ومن هنا كان حديث القرآن إلى المؤمنين وحضهم على قتال من اعتدوا عليهم . وتوجيهه لهم ألا يخشوا عدوهم فيفت ذلك فى عضدهم ويبدد من قوتهم . وإنما عليهم - بحكم إيمانهم - أن يخشوا الله ويجاهدوا فى سبيله . وذلك طريق النصر لهم والهزيمة لأعدائهم . يقول الله تبارك وتعالى فى ذلك :

﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ (٢) .

ومصدر الخوف من الله سبحانه ، هو المعرفة الحقة الكاملة بجلاله وعظمته ، والاعتقاد الذى لا يشوبه ريب فى أنه غنى عن العالمين وأنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، ومن هنا كان خوف العارفين بالله من الله أقوى وأعظم من خوف عامة الخلق ، ذلك لأنه كلما ازدادت معرفة الإنسان بالله ، كلما وضحت له عيوب نفسه وأدرك مدى تقصيره فى

(١) ابراهيم ١٣ ، ١٤ (٢) التوبة ١٣ - ١٥

حق خالقه، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان :

[والله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية] (*)

(*) روى الإمام البخارى فى كتاب النكاح : حدثنا سعيد بن أبى مریم، أخبرنا جعفر بن محمد، أخبرنا حميد بن أبى حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبی ﷺ يسألون عن عبادة النبی ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأین نحن من النبی ﷺ وقد عُفِرَ له ماتقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم أما أنا فإنی أصلى اللیل أبدا، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) .

وبالرغم من صلته بربه ومكانته عنده فقد طلب إليه أن يقول :

﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾^(١).

ويتلاقى ذلك مع ما تجده فى القرآن من قصر خشية الله على العلماء من عباده، وذلك حيث يقول سبحانه: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(٢).

(٢) فاطر ٢٨

(١) الأنعام ١٥، يونس ١٥، الزمر ١٣

والخوف من الله نوع فريد في باب الخوف إذ الخوف من غيره يدفع صاحبه إما إلى الهرب إلى ملاذ يعوذ به وملجأ يحميه من مصدر الخوف، وإما إلى المخاطرة في محاولة التعرف عليه وعلى سره ليتغلب عليه أو يأمن جانبه، أما الخوف من الله فإنه يدفع العبد دائماً إلى أن يهرع إليه ويتقرب منه أكثر ما يكون القرب بالنسبة إليه إذ لا مجال للتغلب عليه سبحانه وهو الغالب على أمره ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، ولا وجود لما يحمي الإنسان من بطش الله إذا أراد، إذ لا ملجأ منه إلا إليه وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١).

ولسنا في حاجة إلى القول بأن معرفة الله الحق، والتي تورث الخوف منه سبحانه، لم تكن على مشاهدة ورؤية، فالله جل جلاله لا تدركه الأبصار، وإنما هي ثمرة للإيمان بالغيب كما أمر الله، وفي الحدود التي رسمها في كتابه، ومن هنا كانت قيمة خشيته، وما أعد الله لأصحابها من أجر مما نجده في قول الله سبحانه :

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ، فَبَشِّرْهُ، بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾^(٢).

وقوله جل شأنه :

(٢) يس ١١

(١) الذاريات ٥٠

﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير﴾^(١).
وقوله عز وجل:
﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ،
من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾^(٢).

زيادة الإيمان عند سماع آيات الله

ومن أوصاف المؤمنين التي ذكرها القرآن الكريم ، أنهم إذا سمعوا آيات الله تلى عليهم يزيد إيمانهم ، ولا تكون الزيادة في الشيء إلا إذا تحقق وجوده أولاً ، فكذلك إيمان المرء لا يزيد إلا إذا كان تصديقه بالله قد بلغ حد اليقين ، وصار يثمر بممارسة الطاعات والبعد عن المعاصي ، وأصبح بحيث لا يعتريه شك أو ريب ، ومن هنا كانت تلاوة الآيات وسماعها تقوية لهذا اليقين وتجديداً له .

وإذا كانت الآية التي معنا : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾^(١) . تقرر زيادة الإيمان عند سماع آيات الله ، ففي القرآن الكريم آيات أخرى تتحدث عن زيادة الإيمان لأكثر من سبب فنحن نقرأ :
قال الله تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٢) .

فهؤلاء الذين لم تفرعهم الأخبار عن العدو المتربص لهم واعتمدوا على

(٢) آل عمران ١٧٣

(١) الأنفال ٢

الله لقوة ثقتهم به ، وتركوا عليه بعد التهيئة والاستعداد الواجب زاد إيمانهم بهذا الثبات وتجدد شبابهم .

ونقرأ قوله عز وجل :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ (١) .

وإذا كانت الآية السابقة تقرر ثبات المؤمنين على إيمانهم رغم سماعهم الأخبار المزعجة عن العدو المتجمع للهجوم عليهم ، فإن الآية التي معنا تقرر ثباتهم على الإيمان رغم رؤيتهم فعلا للأحزاب الذين أحاطوا بهم ، وفي الظروف التي صورها القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزلاً شديداً ﴾ (٢) .

ونقرأ قول الله جل شأنه :

﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما ﴾ (٣) .

وبالرجوع إلى أسباب نزول سورة الفتح وما سبقها من بيعة الرضوان وصلح الحديبية وما أحدث في نفوس كثير من المؤمنين مع محاولة فهم

(٣) الفتح ٤

(٢) الأحزاب ١٠ ، ١١

(١) الأحزاب ٢٢

قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ﴾ .

فى ضوء ذلك كله . يظهر لنا بوضوح سر التعبير بقوله تعالى :

﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

ولسنا بحاجة - بعد هذا التعبير - إلى الجدل الذى دار ومازال يدور حول زيادة الإيمان ونقصه ، فليس بعد قول الله تبارك وتعالى مجال لبحث ، وقد صرح القرآن الكريم بزيادة الإيمان ، بل قال :

﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾

والمتتبع لآيات القرآن الكريم التى تتحدث عن العقيدة فى طرفيها - الإيمان والكفر - يجد أنها تقرر قبولها للزيادة فيهما وكما قرأنا الآيات التى تقرر زيادة الإيمان فإننا نقرأ كذلك آيات أخرى تقرر زيادة الكفر يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الذين آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ (١) .

ويقول الله جل شأنه :

﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونّه عاماً

(١) النساء ١٣٧

ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ﴿٤١﴾
ويقول سبحانه:

﴿ولا يحسن الذين كفروا أنما نملئ لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملئ لهم
ليزدادوا إثمًا، ولهم عذاب مهين﴾ ﴿٤٢﴾.

وما كان للإثم أن يزيد لو أن العقيدة في طرفها الأسفل لا تزيد.
ومن الآيات ما يقرر أن بعض الأسباب يحدث أثراً مزدوجاً في عقيدة
الناس. فيزيد في إيمان المؤمنين. ويزيد في الوقت نفسه في رجس
الكافرين. يقول الله سبحانه:

﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما
الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض
فزادتهم رجساً إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون﴾ ﴿٤٣﴾.
ويقول جل شأنه:

﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا
خساراً﴾ ﴿٤٤﴾.

على أن في الكتاب الكريم آيات أخرى تقرر صراحة أن قوة العقيدة في
نفوس المؤمنين ليست في مستوى واحد، إذ هم يختلفون في استعدادهم

(١) التوبة ٣٧ (٢) آل عمران ١٧٨ (٣) التوبة ١٢٤، ١٢٥ (٤) الإسراء ٨٢

للتضحية في سبيل عقيدتهم عندما تدعوا الحاجة إليها ولقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا التفاوت في عهد الإسلام الأول ومع وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم يقول القرآن عن الأحداث التي سبقت غزوة بدر الكبرى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ (١).

ويتحدث القرآن عن غزوة أحد فيقص علينا ما كان من اختلاف في اتجاهات المقاتلين من المؤمنين، وفي أهدافهم من المعركة الدائرة فيقول: ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (٢).

ويتحدث القرآن كذلك عن غزوة تبوك وملابساتها فيقول فيما يقول: ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ (٣).

(١) الأنفال ٦٥ (٢) آل عمران ١٥٢ (٣) التوبة ١١٧، ١١٨

ويفرق القرآن بين هؤلاء الذين ضحوا في سبيل عقيدتهم حين كان الإسلام وليدا تتنازع الأعاصير ، وتتكالب عليه عوامل الشر وأولئك الذين فعلوا ذلك ولكن بعد أن اشتد ساعد الدين وصارت له الكلمة النافذة والسلطة الشاملة وذلك في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾^(١).

ونجد القرآن يضع قانونا عاما لتفضيل بعض المؤمنين على بعض تبعاً لقوة الباعث التي يتصرف المؤمن نتيجة لها فيقول :

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾^(٢).

ثم نجد القرآن الكريم يستكر أن يسوى المؤمن الصالح بالمفسد في الأرض ، أو يسوى التقى بالفاجر وذلك حين يقول :

(٢) النساء ٩٥ ، ٩٦

(١) الحديد ١٠

﴿أَمْ نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أَمْ نجعل المتقين كالفجار﴾^(١).

وحين يقول :

﴿أَمْ حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون﴾^(٢).

ولا شك أن جماعة المؤمنين تضم هؤلاء وأولئك ، ولا شك أيضا في أن إيمان الأتقياء أقوى من إيمان مجترحي السيئات .

التوكل على الله

والتوكل على الله من صفات المؤمنين التى نص عليها فى قوله تعالى :
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١).

وفى كثير من آيات الكتاب الكريم نجد التوكل على الله من واجبات
المؤمن التى أمر بتحقيقها فى صيغة واضحة صريحة، وذلك حيث تقرأ
قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون ﴾^(٢).

والتأمل فى الآيات التى ذيلت بهذا الأمر الإلهى يستطيع أن يستخلص
منها - متعانة - أن معنى التوكل على الله فى لسان القرآن هو الثقة التامة
فى حكمته سبحانه وتعالى ، واليقين الصادق بقدرته الشاملة وإرادته
النافذة وعلمه الخيط . وأن المؤمن به فى رعايته دائماً ، ومحفوظ بعنايته
فى كل أمر من أموره ، ومن هنا كان عليه الرضا التام فى كل أحواله بما
يريد الله له ما دام لم يقصر فى واجب ولم يقارف عملاً يعصى الله به .
ويؤخذ من الآيات الكريمة أن التوكل على الله يؤتى ثمرته ، سواء

(٢) آل عمران ١٢٢ ، ١٦٠

(١) الأنفال ٢

أكان للمرء وضع إيجابى فى الموقف أم لم يكن ، وسواء أكان مدركا لحقيقة الأمر أم لا علم له بها ، فعناية الله تحف بعباده ، وتهىء لهم طريق الخلاص دون علم منهم - فى كثير من الأحيان - بما يحيط بهم من أخطار ، وما يدبر لهم من مكائد ، ويؤيد ذلك قول الله تبارك وتعالى فى معرض الحديث عن غزوة أحد :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنین مقاعد للقتال ، والله سمیع علیم ، إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ^(١) .

وقوله جل شأنه :

﴿ يا أيها الذین آمنوا اذكروا نعمة الله علیکم إذ هم قوم أن یسطوا إلیکم أيديهم فكف أيديهم عنکم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ^(٢) .

وفى قوله عز وجل فى شأن المنافقین وما كانوا یرتكبون من كبائر ويحيكون من مؤامرات ضد رسول الله ﷺ :

﴿ ویقولون طاعة ، فإذا برزوا من عندك بیت طائفة منهم غیر الذی تقول ، والله یکتب ما یبیتون ، فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفی بالله وکیلا ﴾ ^(٣) .

(١) آل عمران ١٢١ ، ١٢٢ (٢) المائدة ١١ (٣) النساء ٨١

فالتدبير بليل، والمؤامرات في الظلام، والرسول لا يعرف عنها شيئاً، إلا ما جاءه الوحي به، وهو دائماً في رعاية الله وعنايته فليظل على ثقته الكاملة بربه وليواصل أداء رسالته، ولا يشغل نفسه بهؤلاء وأمثالهم.

والتوكل على الله لا يتعارض مع الإيمان بالصلة بين الأسباب والمسببات التي أبدع الله العالم وجعلها ضمن قوانينه وسننه وإنما التوكل إيمان عميق بهذه الصلة، فالأمور التي يجب على المؤمن أن يكون له فيها تصرف لا يتحقق التوكل بالنسبة إليها إلا إذا قام الإنسان بما يجب عليه أولاً، ثم يدع النتيجة لله سبحانه ويفوض الأمر إليه، ومما يوضح ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم إذ لا سبيل إلى الشك في أن كلاً منهم قد قام بواجب التبليغ على خير وجه، وكل منهم توكل على ربه مع أداء واجبه، ونقرأ في قصة نوح عليه السلام قول الله تبارك وتعالى:

﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾^(١).

ونقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام ما حكاه الله من قوله:

(١) يونس ٧١

﴿ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير﴾^(١).

وقال هود عليه السلام لقومه :

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها،

إن ربي على صراط مستقيم﴾^(٢).

وقال شعيب عليه السلام لقومه :

﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها،

وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء

علما، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير

الفاتحين﴾^(٣).

وأما خاتم الأنبياء محمد ﷺ - وهو الذي حرص على إسلام قومه

ونجاتهم إلى حد أن خاطبه الله بقوله سبحانه :

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث .

أسفا﴾^(٤).

فقد قال له ربه بالنسبة لقومه :

﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب

العرش العظيم﴾^(٥).

(٣) الأعراف ٨٩

(٢) هود ٥٦

(١) المتحنة ٤

(٥) التوبة ١٢٩

(٤) الكهف ٦

وقال له أيضا .

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾^(١) .

وطلب منه أن يقول للمختلفين فى شأن الألوهية :

﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾^(٢) .

وطلب إليه أن يعلنها صريحة مدوية :

﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾^(٣) .

وهناك آيات أخرى من الكتاب الكريم تؤيد وجوب القيام بالعمل اللازم قبل التوكل على الواحد الأحد . فالله يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمتم فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾^(٤) .

فالتوكل مسبوق بالعزم والتصميم ، ولا يكون ذلك إلا بعد تقليب الأمر على وجوهه ومحاولته الوصول إلى أفضل الطرق لحل المشكلة التى تواجه الإنسان . ويقول سبحانه :

(١) الرعد ٣٠ (٢) الشورى ١٠

(٣) الملك ٢٩ (٤) آل عمران ١٥٩

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوءنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، نعم أجر العاملين﴾^(١).

ثم يصف هؤلاء العاملين فيقول:

﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾^(٢).

ويقول جل شأنه:

﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾^(٣).

والذى يدخره العبد عند الله هو العمل الصالح.

ويقول الله عز وجل لرسوله ﷺ:

﴿وأندر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون، وتوكل على العزيز الرحيم﴾^(٤).

ويقول كذلك له:

﴿يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين، إن الله كان عليماً حكيماً، واتبع ما يوحى إليك من ربك، إن الله كان بما تعملون خبيراً، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾^(٥).

(٣) الشورى ٣٦

(٢) العنكبوت ٥٩

(١) العنكبوت ٥٨

(٥) الأحزاب ١ - ٣

(٤) الشعراء ٢١٤ - ٢١٧

وإذا كان القرآن يقول :

﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

فإنه بين بوضوح أن نصر الله لا يأتي عفواً ودون عمل، وإنما هو مشروط بأن يقوم المؤمنون بواجبهم نحو ربهم وذلك قوله تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢)
وقوله عز وجل :

﴿وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣).

وكل هذا يجمعه تعبير قرآني معجز في إيجازه . وذلك قوله تعالى :
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

فقد أمر الله عز وجل بالعبادة قبل التوكل ، والعبادة في لغة القرآن الكريم عمل متقن ، وهدف سليم مقبول يتعاونان معاً على تحقيق خلافة الإنسان عن الله في الأرض .

وإذا كان التوكل مشتقاً من الوكالة فيقال : وكل أمره إلى فلان أى فرضه إليه واعتمد عليه فيه ، فقد بين القرآن الكريم أن الملجأ الذى لا ملجأ غيره ، والوكيل الذى يعتمد عليه ويوثق فيه تمام الثقة ، إنما هو الله

(١) آل عمران ١٦٠ (٢) محمد ٧ (٣) الحج ٤٠ (٤) هود ١٢٣

سبحانه وأن التوكل الحقيقي لا يكون إلا عليه وذلك حين نقرأ ما حكاه القرآن عن رسل الله حين قالوا :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ ^(١) .

وحين نقرأ ما طلب من الرسول ﷺ أن يعلنه :

﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة ، هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ^(٢) .

فالأساس في التوكل إذاً هو المعرفة التامة بالله سبحانه ، والإيمان بصفاته من قدرة وإرادة وعلم وحكمة . وهو الإيمان العميق بانتهاء الأمور كلها إليه . وصدورها عن مشيئته . ومن هنا كان المؤمن المتوكل على الله في مأمن من الشيطان وأحاييله . وصدق الله حيث يقول :

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ^(٣) .

(١) (٣) النحل ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) الزمر ٣٨

(٣) إبراهيم ١٢ .

إقامة الصلاة

ويؤخذ من القرآن الكريم أن الصلاة كانت ركناً هاماً في كل ديانة من ديانات الله التي تحدث عنها ، وأن كل رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد اهتم بها . فإبراهيم خليل الله يناجي ربه فيقول :

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة...﴾^(١) .

ويتهل إلى الله في ضراعة قائلاً :

﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي...﴾^(٢) .

ويثني الله على رسوله إسماعيل عليه السلام بأنه :

﴿كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة...﴾^(٣) .

ويقص علينا الكتاب الكريم بعضاً من قصص رسله : إبراهيم ، ولوط ،

واسحاق ، ويعقوب عليهم صلوات الله وسلامه ثم يقول :

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام

الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾^(٤) .

ويخبرنا القرآن كذلك أن أول ما تلقى موسى عليه السلام عن ربه عز

(١) إبراهيم ٣٧ (٢) إبراهيم ٤٠ (٣) مريم ٥٥ (٤) الأنبياء ٧٣

وجل :

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١) .

ويوحى الله إليه وأخيه بعد ذلك :

﴿أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمِكَمَا بِمَصْرَ بِيُوتًا ، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

ويحكي الله على لسان عيسى عليه السلام قوله :

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(٣) .

ونقرأ من وصايا لقمان لابنه :

﴿يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٤) .

ويذكر الله عددا من أنبيائه ورسله ويثنى عليهم بقوله :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ، وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمَنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(٥) .

ثم يذم من جاء بعدهم ويبين أن من أسباب ذمهم إضاعتهم الصلاة

(٣) مريم ٣١

(٢) يونس ٨٧

(١) طه ١٤

(٥) مريم ٥٨

(٤) لقمان ١٧

وذلك حين يقول :

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ﴾^(١).

وإذا كانت هذه هي مكانة الصلاة في الديانات السابقة للإسلام فإن مكانتها في الإسلام أرفع من أن يمارى فيها ، أو يلتبس الدليل على إثباتها ، فما من موضع تعرض القرآن فيه لرسم صورة المؤمنين أو المتقين أو الخبثين أو أولى الألباب ، إلا ونجد الصلاة من أبرز ملامح الصورة . ومن أشد حبات العقد وضاءة وإشراقا . وذلك بخلاف غيرها من الصفات التي نجد لها تارة ونفتقد لها أخرى . نقرأ من ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾^(٢).

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ﴾^(٣) .
﴿ وبشر الخبثين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ﴾^(٤) .

ويقرر القرآن أن التذكر النافع مقصور على أولى الألباب في قوله تعالى :

(١) مريم ٥٩ (٢) البقرة ٢ ، ٣ (٣) المائدة ٥٥ (٤) الحج ٣٥

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ ثم يذكر من أوصافهم :
 ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة﴾^(١) .
 ويصف الله كتابه الكريم بأنه مبارك مصدق الذى بين يديه ثم يقول :
 ﴿والذين يؤمنون بالأخيرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم
 يحافظون﴾^(٢) .
 والصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا بد من أن
 يمارسه المسلم عدة مرات فى كل يوم ، وفى أوقات محددة ، وفى
 خشوع تام ، وصديق الله العظيم حيث يقول :
 ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾^(٣) .
 وقد عنى القرآن الكريم أن يوضح أن المحافظة عليها والخشوع فيها من
 علامات الإيمان ومما يوصف به المؤمن ، نقرأ فى ذلك قول الله سبحانه :
 ﴿قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾^(٤) .
 ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾^(٥) .
 ويبين القرآن بعض جوانب الطبيعة البشرية فيقول :
 ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير
 منوعاً﴾
 ثم يقرر أن المصلين لا يتصفون بهذا الجانب السيء فيقول :

(٣) النساء ١٠٣

(٢) الأنعام ٩٢

(١) الرعد ٢٢

(٥) المؤمنون ٩

(٤) المؤمنون ١ ، ٢

﴿إِلَّا الْمُصْلِينَ﴾^(١) . ويذكر من أوصافهم :

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(٢) .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾^(٣) .

ومن السهل أن يفهم الإنسان السر في طهارة صحيفة المصلي وتقواه طبعته عن النقائص التي تلحق بغيره، فهو دائم الصلة بالله، إذ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ومن هنا كانت الصلاة طهارة لمن يؤديها وكان الحافظ عليها في مأمن من وساوس الشيطان وشطحات النفس التي تبعده عن طريق الهداية والرشد، وصدق الله حيث يقول :

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤) .

وحيث يوضح لعباده أن مما يحاول الشيطان أن يتجسس فيه إبعادهم عن الصلاة التي تربطهم بالخالق وتفتح عيونهم وقلوبهم ليميزوا بين الضلال والهدى، يقول الله سبحانه :

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٥) .

ومن هنا كذلك كانت الصلاة الخالصة لله وسيلة يهرع إليها المؤمن عندما تواجهه شدة أو يحيط به بلاء، فتعينه على الصبر، وتخفف من

(٣) المعارج ٣٤

(٢) المعارج ٢٣

(١) المعارج ١٩ - ٢٢

(٥) المائدة ٩١

(٤) العنكبوت ٤٥

وقع المصائب على نفسه ، كما يهرع إليها ويدعو الله فيها أن يعينه على أداء طاعته ، وصدق الله حيث يقول :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ ^(١).

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .
ومما يلفت النظر أن التعبيرات القرآنية بالنسبة للصلاة تنحصر في إقامتها والحفاظه عليها ، والخشوع فيها ، ثم المداومة على فعلها وكل هذه التعبيرات لا مدلول لها إلا إذا كان الإنسان مستحضراً عظمة الخالق حين يقف بين يديه ، مقدراً لهذه العبادة قدرها ، فلا يقربها إلا وهو مستعد لها ومقبل عليها بروحه وجوارحه سواء ، وقد عنى القرآن بتوجيه المؤمن إلى واجبه في ذلك كله ، فأوجب الطهارة على من يقصدها في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ ^(٢).

ونهى عن قربانها كل من فقد السيطرة على تصرفاته شأن السكران الذى لا يعى ما يقول ، فإذا عادت إليه طبيعته ، وملك زمام نفسه ، أقبل عليها . يقول الله سبحانه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾^(١) .

● جاء فى تفسير ابن كثير عن الآية المذكورة :

[وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى ، حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نعى أحدكم وهو يصلى فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول » . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم . انتهى

ويوحى القرآن الكريم إلى المؤمنين به أن الصلاة وسيلة إلى وحدتهم ففيها يتجهون - أيا كانت أمكتهم وألوانهم وجنسياتهم - إلى قبلة واحدة فيحسون بوحدة أمتهم وبوحدة مصيرهم ، وهو إحساس يقوى من نفوسهم ويضاعف من معنوياتهم ، يقول الله سبحانه :

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء . فلنولينك قبلة ترضاها فتب وجهك شطر المسجد الحرام . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾^(٢) .

(٢) البقرة ١٤٤

(١) النساء ٤٣

ويقول جل شأنه :

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾^(١) .
ويكرر ما جاء في الآيتين مرة أخرى مما يدل على أهمية التوجيه والأمر
فيقول عز وجل :

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما
كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾^(٢) .

ولأهمية الصلاة في تعاليم الإسلام أوجب على المؤمن أن يحافظ عليها
في كل حالة من حالاته ، ولم يسقطها عنه إلا إذا كان على وضع يتنافى
مع ما يلزم للصلاة نفسها من طهارة واجبة ، كما نجد في التشريع الخاص
بالخائض والنفساء .

ومن هنا رأينا القرآن الكريم يوجبها في حالة فقد الماء ، ويوجب التيمم
بالتراب عوضاً عنه ، وذلك حين يقول :

﴿وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ،
أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا
بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد
ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾^(٣) .

ورأينا القرآن كذلك يصرح بوجوبها وقت الحرب ، وفي حالة السفر .

(٣) المائدة ٦

(٢) البقرة ١٥٠

(١) البقرة ١٤٩

وعندما يكون المؤمن فى حالة خوف لا يسهل عليه معها أن يؤدى الصلاة كاملة أو على الوجه المطلوب ، وإن كان قد شرع لكل ظرف ما يتناسب معه من تخفيف ، فأباح قصر الصلاة فى حالة السفر فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(١) .

وشرع لحالة الخوف صلاة خاصة إذا أدت فى جماعة وذلك حين يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ . وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(٢) .

وأسقط وجوب استقبال القبلة إذا لم يكن من السهل على المصلى أن يستقبلها فقال جل شأنه :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ^(٣) .

(٣) البقرة ٢٣٩

(٢) النساء ١٠٢

(١) النساء ١٠١

ونجد القرآن يوجب على المسلمين صلاة جامعة في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وذلك حين يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وهي الصلاة الوحيدة التي يجب السعي إليها عند النداء لها دون تأخير .

وفي اجتماع كل جماعة من المسلمين في مكان واحد فرصة للتعرف على أحوال الأفراد والوقوف على ما تحتاج إليه الجماعة ، وفي تشريع خطبة الجمعة ما يمكن من الوصول إلى هذا الهدف الاجتماعي النافع .

وتشريع صلاة الجمعة لا يعنى البطالة أو الانقطاع عن العمل في هذا اليوم . فالإسلام لا يعرف هذا المعنى ، ولذلك نص القرآن الكريم على إتاحة العمل في يوم الجمعة في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

ولم يفت القرآن الكريم أن يقرر أن الصلاة التي تضل العبد بربه وتعينه على تحمل ما يشاء له القدر من صعاب ، وتدفعه خطوات في طريق الطاعة والامتنال لله ، ليست سهلة إلا على هؤلاء الذين خشعت قلوبهم

(٢) الجمعة ١٠

(١) الجمعة ٩

للوّاحد الأّحد، وأيقنوا بالرجوع إليه فرجوا رحمته وخافوا عذابه، أما غيرهم، فهي كبيرة عليهم وشاقة على نفوسهم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾^(١).
وهذا يفسر لنا قول الله سبحانه لرسوله ﷺ
﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾^(٢).

إيتاء الزكاة

من المعلوم لكل باحث فى الدراسات الإسلامية أن الزكاة نوع من الصدقة، هى الصدقة الواجبة، وهناك نوع آخر تحدث عنه القرآن، وتحدثت عنه السنة، هو الصدقة المندوبة أو غير الواجبة ويجمع النوعين لفظ «الإنفاق» أو «إيتاء المال»

و«الزكاة» هى التى لا بد منها فى تحقيق وصف الإيمان، وأما ما وراء ذلك من إنفاق غير واجب فهو زائد عن مفهوم الإيمان ويمثل جزءاً من مفهوم التقوى وما يساويها فى عرف القرآن.

والمتتبع للتعبيرات القرآنية فيما يختص بالإنفاق أو إيتاء المال يلاحظ أنه:

١ - عندما يوجه الله أمراً إلى المؤمنين بالإنفاق يقول: ﴿آتُوا الزكاة﴾ ومن هذا قوله تعالى: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم، وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾^(١).

(١) الحج ٧٨

وقوله عز وجل :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرِّسَالَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾^(١) .

وإذا وجد الأمر بالإِنفاق فى بعض الآيات ، فقد سبق بالأمر بالتقوى وذلك فى قوله تعالى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا أَنْفُسَكُمْ وَمَنْ يَوْ شَحْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾^(٢) .

٢ - وعندما يحدد الله معنى الإيمان يعبر - فيما يتعلق بالإِنفاق - بلفظ (يؤتون الزكاة) ومن هذا قوله تبارك وتعالى :

﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٣)

وقوله جل شأنه :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٤) .

وعلى هذا المعنى (الصدقة الواجبة) ينبغى أن يحمل معنى الإنفاق كلما جاء فى وصف المؤمنين ، مثل قوله تعالى :

(١) النور ٥٦ (٢) التغابن ١٦ (٣) المائدة ٣٥ (٤) التوبة ٧١

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (١) .

٣ - وعندما يتحدث القرآن عما أوحى إلى بعض الرسل السابقين من عناصر الإيمان . يذكر منها إيتاء الزكاة . يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٢) .

ويخبرنا الكتاب الكريم أن عيسى عليه السلام قال :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، آتَانِي الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٣)

وأثنى الله على رسوله إسماعيل عليه السلام بقوله :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٤) .

٤ - والصدقة الواجبة (الزكاة) لا يعفى الإنسان منها إذا أخرجها سراً ، ولم يثبت لولى الأمر صحة دعواه فى ذلك ، وخاصة عندما تكون تعاليم الإسلام مطبقة كما ينبغي .

ونعلم أن من مخارج الزكاة (العاملون عليها) ونعلم كذلك أنها تؤخذ

(١) الأنفال ٢ ، ٣ (٢) الأنبياء ٧٣ (٣) مريم ٣١ ، ٣٠ (٤) مريم ٥٥

قسرا من مانعها ، وأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل فى سبيل الحصول عليها وقال :

﴿ لو منعونى عقل بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ﴾ ولو كان يجوز إخراجها سراً لكان هناك مخرج لهؤلاء الخبثاء لينفذوا أنفسهم من العقوبة ولما كان هناك وجه لما فعل خليفة رسول الله ﷺ ، وتعبير القرآن الكريم فى موضوع الزكاة يؤيد ما نقول ، وذلك حين نقرأ قول الله تعالى لنبية ﷺ :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (١) .
أما الصدقة المندوبة ، فنجد أنها تقبل سراً ، بل إخفاؤها أعظم درجة فى نظر الإسلام .

يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ (٢) .

خصوصا إذا أعطيت الصدقة لهؤلاء الذين ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾
حفاظا على كرامتهم ، وإبقاء على ماء وجوههم .

ونجد أن الإنفاق فى السر والعلانية من أوصاف أولى الأبواب وقد

(٢) البقرة ٢٧١

(١) التوبة ١٠٣

أدرج مع أوصاف أخرى تجعل أصحابها في درجة أعلى من مجرد الإيمان، مثل درء السيئة بالحسنة يقول الله تعالى في أوصاف هؤلاء :

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعرون بالحسنة السيئة ﴾ ^(١) .

ونجد كذلك أن من أوصاف المتقين :

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ ^(٢) .

وقد أدرج مع قوله تعالى :

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ، وكل ذلك يزيد عما يتطلبه مجرد الإيمان ، فالقرآن الكريم يقول :

﴿ .. وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ^(٣)

ثم يذكر من أوصاف هؤلاء :

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها .. ﴾ ^(٤) .

ثم يوضح هذا المعنى أكثر فيقول :

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ ^(٥) .

ويبين بعد هذا كله أن العفو والصفح والصبر على الإساءة من الأمور

(١) الرعد ٢٢ . (٢) آل عمران ١٣٤ . (٣) الشورى ٣٦ .
(٤) الشورى ٣٩ ، ٤٠ . (٥) الشورى ٤١ .

التي لا يسهل على النفس البشرية العادية ممارستها فيقول :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ^(١).

والزكاة في تقويم الإسلام طهرة وتركية للمال ولصاحبه ، كما ينطق بذلك قول الله سبحانه :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ^(٢).

ويظهر هذا المعنى جلياً عندما نتأمل مصارفها التي حددها الله في قوله :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ ^(٣).

فهؤلاء الذين تقضى حاجاتهم ، وتفرج كرباتهم عن طريق الزكاة يؤلفون جزءاً كبيراً من أفراد الأمة الإسلامية ، ولو تركوا نهياً للفقير وعرضة للجوع ؛ لكانوا مصدر خطر ، مباشر أو غير مباشر ، على الأمة وعلى أغنيائها ، ولتركزت في نفوسهم المعاني التي تمثل عوامل الهدم وتصدع البنيان في كل جماعة ، من حقد وحسد وكراهية .

ولقد كان الإسلام حكيماً في تنظيم فريضة الزكاة تحصيلاً وصرفاً ، فولى الأمر يتقاضاها من الأغنياء تنفيذاً لقوله تعالى :

﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ وعن طريقه تصرف لمستحقيها من

(١) الشورى ٤٣ . (٢) التوبة ١٠٣ . (٣) التوبة ٦٠ .

وإيتاء الزكاة من شروط قبول توبتهم وربطهم بالمسلمين برباط الدين ،
يقول الله سبحانه :

﴿ فَإِنْ تَابُوا ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَنفَصَلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وحين يبين أن نصر الله لعباده مشروط بأن ينصروه في قوله تعالى :
﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ^(٢) .

فقد بين صفة هؤلاء في قوله عز وجل :
﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا
بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ^(٣) .

(٣) الحج ٤١

(٢) الحج ٤٠

(١) التوبة ١١

ولاية المؤمنين

ومن الصفات التي عددها القرآن الكريم، وهو بصدد رسم صورة المؤمنين والمؤمنات، أن بعضهم أولياء بعض، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ^(١).

وخير ما يتمثل هذا إنما يكون في الصداقة والنصرة، فالصديق المقرب للمؤمن ينبغي أن يكون مؤمناً مثله، وعليه أن يكون مستعداً لنصرة أهل دينه بالمعنى الذي يرضاه الإسلام. وهو المأخوذ مما جاء في كتب الحديث من أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»: قالوا: ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أن تكفه عن ظلمه».

ويجلو هذا المعنى ما جاء في نفس الآية من قوله تعالى:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بعد قوله عز وجل:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فالكف عن الظلم من النهي عن المنكر.

وقد عنى القرآن الكريم بهذا العنصر عناية تلفت النظر وتدعو إلى الانتباه، فلم يكتف بذكر الناحية الإيجابية من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وإنما صرح بالناحية السلبية كذلك، ونهى المؤمنين عن أن يتخذوا

(١) التوبة ٧١

بطانة من دونهم وبطانة الرجل خصيصته وصفيه الذى يطلعه على سره ، ويخصه بمزيد القربى ويأنس إليه فيشكو إليه حاله ، ويتوقع نصره إذا وقع فى مكروه ، وكل ذلك لا يمكن أن يتحقق إذا تخالفت العقيدة بين شخصين .

فالعقيدة فى نظر التعاليم الإسلامية ، هى التى تميز الإنسان عن غيره أو تجمعه بغيره ، فهى فى لغة عصرنا توازى ما تعرف عليه من التعبير بالجنسية ، وكما تدعو كل دولة رعاياها إلى الحرص على أسرارها وعدم التقرب ممن يخالفها فى نظمها ومبادئها فالدين كذلك ، لأن الدين هو الرابطة الحقيقية بين أتباعه ، ومن هنا نجد اختلاف الدين يقضى على صلة الدم والنسب فلا يترتب عليها شىء من ميراث أو ولاء إذ لا توارث بين مسلم وغير مسلم فى شريعة الإسلام أياً كانت الصلة النسبية بين الوارث والمورث .

هذا التقويم لمكانة الدين ليس غريباً على من يعرف أثره فى نفوس أتباعه والمخلصين له ، لا فرق فى ذلك بين دين صحيح وآخر فاسد ، فهو قوة دافعة إلى التضحية بكل شىء فى سبيله مادام الاعتقاد به موجوداً ، وكل مؤمن بدين يحاول جاهداً تكثير أتباعه وجذب الغير إليه ، وتاريخ الإنسانية فى جميع مراحلها غنى بالأمثلة التى تؤيد هذه الحقيقة .

ومن هنا كان توجيه القرآن الكريم للمؤمنين به ، ونهيه الواضح لهم عن

اتخاذ خلاء من يخالفونهم في العقيدة، يعتمدون عليهم فيما يعظم من أمورهم، ويفضون إليهم بأسرارهم وأسرار جماعتهم ويعملون بمشورتهم في تصريف شئونهم، خاصة إذا كانوا موتورين منهم، وامتألت قلوبهم بالضعينة والحقدهم عليهم، ولعل أوضح صورة لهؤلاء يجليها قول الله تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ (١) .

وفي ضوء هذا التصوير تظهر الحكمة في النهي الوارد في مثل قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

(٢) المائدة ٥١

(١) آل عمران ١١٨، ١١٩

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
 الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) .
 وقد بين القرآن الكريم أن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين جريمة
 تجعل صاحبها مسئولاً بين يدي الله عز وجل ، وذلك قوله تعالى :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
 أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ^(٢) .
 ويبين كذلك أن الإقدام على هذا العمل يعتبر من خصائص المنافقين
 الذين لم تعرف قلوبهم طعم الإيمان بالله ، وتلمسوا العزة في موالة
 الكافرين .

يقول الله سبحانه :

﴿ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) .
 وتوجيه القرآن الكريم في هذا الباب جمع الحكمة من طرفيها ففي
 الطرف الإيجابي نجد عوامل الاتحاد والقوة للجماعة المؤمنة عندما يوالى
 كل فرد فيها أخاه في العقيدة ، ويجعله موضع سره ومحل صداقته ،
 ويهب لنصرته عند الحاجة ، ويتعاون معه على الخير والبر ، وينبئه إذا
 تنكب طريق الصواب ، ويكفه عن الظلم إذا حاول ارتكابه ، وبهذا

(١) التوبة ٢٣ (٢) النساء ١٤٤ (٣) النساء ١٣٨ ، ١٣٩

يتحقق ما يجب أن يكون بالنسبة لجماعة المؤمنين من أنهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، كما جاء في تعبير الرسول ﷺ .

وفي الطرف السلبى، نجد الوقاية الواجبة، والبعد عن مصادر الداء وعوامل التفتت، فما من شك فى أن الصديق يؤثر فى صديقه، واتخاذ المخالف فى الدين نصيراً وولياً يؤدي إلى مالا يرضاه المؤمن لدينه أو لجماعته، فنفس هؤلاء غير نقية بالنسبة للمؤمنين، وقد وفى القرآن هذا الموضوع حقه فى كثير من آياته، نقرأ منها قوله تعالى :

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربيكم ﴾ (١) .

وقوله سبحانه :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ (٣) .

(٣) آل عمران ١٠٠

(٢) البقرة ١٠٩

(١) البقرة ١٠٥

وقوله جل شأنه :

﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْسُوهُمْ وَإِنْ تَصَبُّهُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (١) .

ثم قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ، يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٢) .

وبهذا تتكامل الصورة لهؤلاء الذين يجب على المؤمن أن يكون على جانب كبير من الحذر في الصلة بهم أو التعاون معهم . وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (٣) .

(٣) المجادلة ٢٢

(٢) النساء ٤٤

(١) آل عمران ١٢٠

الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر

*

وإذا كان الكتاب الكريم قد شرع للمؤمن كفرد، فقد شرع له كذلك كجماعة وأمة، وكما أثبت مسئوليته الشخصية عن أعماله الفردية فقد أثبت مسئوليته الجماعية في كل ما يتعلق بسلامة أمته من فساد، وأوجب عليه العمل لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج، وأوضح أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقومات شخصية المؤمن التي لا يتحقق وجودها بدونه، وذلك حيث يقول:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾^(١).

وهم في ذلك على عكس المنافقين الذين يصفهم القرآن فيقول:

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾^(٢).

وعنى القرآن الكريم كذلك ببيان أن هذا الواجب ليس خاصاً بالمؤمن

* جاء في مفردات الراغب:

والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه.
والمُنكر: كل فعل تحكّم العقول الصحيحة بقبحه أو تنوقف في استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشرعية..

(٢) التوبة ٦٧

(١) التوبة ٧١

كفرد، وإنما هو من مقومات الجماعة المؤمنة، وعليها أن تهىء وتعد من أفرادها من يكون عمله، الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله تعالى :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾^(١).

وبين أن القيام بهذا الواجب مع الإيمان بالله، هو الذي جعل الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس في قوله عز وجل :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس. تأمرون بالمعروف. وتنهون عن المنكر. وتؤمنون بالله﴾^(٢).

كما بين أنه شرط في الحصول على نصر الله لهم وإمدادهم بعونه. وذلك حيث يقول سبحانه :

﴿...ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة. وآتوا الزكاة. وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور﴾^(٣).

وليس في هذا كله غرابة، إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء يشمل كل ما جاءت به الأديان والرسالات المتعاقبة يقول الله سبحانه في وصف من سيكتب لهم رحمته التي وسعت كل شيء :

(١) آل عمران ١٠٤ (٢) آل عمران ١١٠ (٣) الحج ٤٠، ٤١

﴿الذين يتبعون الرسول النبی الأمی الذی یجدونه مکتوباً عندهم فی التوراة والإنجیل ، یأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنکر ، ویحل لهم الطیبات ، ویحرم علیهم الخبائث ویضع عنهم إصرهم والأغلال التی كانت علیهم﴾^(١).

ومن هنا كان من مقومات الشخصية المؤمنة فی كل مرحلة من التاریخ الإنسانی :

حكى القرآن الکریم من وصایا لقمان لابنه قوله له :

﴿یا بنی أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنکر واصبر علی ما أصابك ، إن ذلک من عزم الأمور﴾^(٢).

ومدح الله سبحانه بعض أهل الكتاب فقال :

﴿من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آیات الله آناء اللیل وهم یسجدون یؤمنون بالله والیوم الآخر ، ویأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنکر ، ویسارعون فی الخیرات ، وأولئک من الصالحین﴾^(٣).

فلم یشهد لهم بالصلاح بمجرد الإیمان بالله والیوم الآخر حتی أضاف إلیه الأمر بالمعروف . والنهی عن المنکر .

وینطق القرآن الکریم بأن إتیان المنکر وشیوعه كان سبباً فی هلاك قوم لوط علیه السلام بعد أن أعرضوا عن دعوة الخیر . وتمادوا فی غیهم ،

(١) الأعراف ١٥٧ (٣) آل عمران ١١٣ ، ١١٤

(٢) لقمان ١٧

(٣) الأعراف ١٥٧

ولم يعثوا بتبكيك لوط لهم حين خاطبهم بقوله :
﴿أأنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم
المنكر﴾^(١).

وينطق كذلك بأن عدم التناهي عن المنكر جريمة يستحق أصحابها
اللعنة ، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ،
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ،
لبئس ماكانوا يفعلون﴾^(٢).

ومن الناحية المقابلة . قرر القرآن أن النهي عن المنكر كان سبباً في نجاة
أصحابه ، فيقول في حديثه عن القرية التي كانت تعدو في السبت :
﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ،
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ،
كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

وإذ قالت أمة منهم لما تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً
شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ، فلما نسوا ماذكروا به
أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا
يفسقون﴾^(٣).

(١) العنكبوت ٢٩ (٢) المائدة ٧٨ ، ٧٩ (٣) الأعراف ١٦٣ - ١٦٥

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم اللبئات في بناء الجماعة المؤمنة التي تحاول تحقيق خلافة الإنسان لله في الأرض والتي وعدها الله النصر ما دامت ملتزمة لصراطه المستقيم فإن عوامل الهدم وجنود الفساد - وعلى رأسها الشيطان - تسعى دائما إلى الحيلولة بين الإنسان والسير في هذا الطريق، إنها تأمره بالفحشاء، وتدفعه إلى المنكر، ولقد كان من رحمة الله بعباده أن بين لنا ذلك في كتابه الكريم وخاطب عباده بقوله تعالى :

﴿ : . ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾^(١)

ويقوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾^(٢) .

أما طريق الله الواضحة المستقيمة ، فهي على عكس ذلك تماما وقد بينها سبحانه في قوله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون ﴾^(٣) .

(٣) النحل ٩٠

(٢) النور ٢١

(١) البقرة ١٦٨ - ١٦٩

طاعة الله ورسوله

ومن أوصاف المؤمنين التي تحدد شخصيتهم أنهم يطيعون الله ورسوله. وطاعة الله سبحانه وتعالى من مستلزمات الإيمان به والثقة في حكمته وعدله ورحمته، وإذا كان الشرع يوجبها على المؤمن، فإن العقل السليم لا يسعه إلا أن يراها نتيجة منطقية للإيمان الذي لا يرتاب صاحبه. الإيمان بالخالق الذي يحيط علمه بكل شيء. والذي - وحده - يعلم ما يصلح لعباده في دنياهم وآخرتهم، فشرع لهم ما يوصلهم إلى السعادة في الدارين.

وطاعة الله سبحانه تشمل فعل كل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه. ومن هنا كان فيها العصمة من الانحراف والضلال، وكان الهلاك والبعد عن الهداية في طاعة غيره وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١).

ونود أن نقف هنا قليلاً لنقول لهؤلاء الذين ينادون بتحكيم الضمير ويتخذون منه بديلاً عن تشريع الله لعباده ، وأولئك الذين يحبذون

(١) الأنعام ١١٦

اتباع ماتعارف الناس على تسميتهم بالفلاسفة والحكماء وإن كان قولهم يخالف ماجاء به الدين : إن التشريعات الإنسانية - مهما كانت مكانة أصحابها من العلم والمعرفة - محدودة وقاصرة ، وهى وإن صلحت فى بعض الأحيان لمن شرعت لهم ، فلن تصلح لمن يجىء من بعدهم ، لتغير القيم ، وتطور الجماعات ، وهم فيما يصدر عن لا يستندون إلى يقين ، وإنما ينبع تفكيرهم عن ظن لا يقين فيه ، وصدق الله إذ يقول :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ .

وقد جعل القرآن الكريم من التشريع الإنسانى هدفاً للاعتراض والتخطئة . والنعى على أصحابه وتبكيته . لأنه غاير شرع الله . وقلب المعايير . وأفسد المفاهيم . وقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

وقوله سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكُنْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ

(١) المائدة ١٠٣

دينهم ، ولو شاء الله مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴿١﴾ .

وقوله عز وجل :

﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج ، من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل الذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئوني يعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل الذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٢) .

وطاعة الله لا تتحقق إلا بطاعة رسوله ﷺ ، ذلك لأن شرع الله لا يعرف إلا عن طريق من اختاره من خلقه ، ليكون المبلغ لشرعه إليهم ولذلك لا نجد آية في الكتاب الكريم تذكر طاعة الله دون أن تكون مقرونة بطاعة الرسول . سواء كان ذلك فى صيغة الأمر كما فى قوله

(٢) الأنعام ١٤٢ - ١٤٤

(١) الأنعام ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠

تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ^(٢).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ ^(٣).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ^(٥).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٦).

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ ^(٧).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ^(٨).

(١) آل عمران ٣٢	(٢) آل عمران ١٣٢	(٣) المائدة ٩٢	(٤) الأنفال ١
(٥) الأنفال ٢٠	(٦) الأنفال ٤٦	(٧) النور ٥٤	(٨) محمد ٣٣

أو كان في صيغة الخبر كما في قول الله عز وجل :

﴿ تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾^(١) .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾^(٢) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه فأولئك هم الفائزون ﴾^(٣) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾^(٤) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً ﴾^(٥) .

﴿ وإن طيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾^(٦) .

وفي ضوء تلك الصلة بين طاعة الله وطاعة رسوله لا يكون هناك وجه للاعتراض على طلب رسل الله عليهم السلام - من أقوامهم أن يطيعوهم ، وذلك فيما حكاه القرآن الكريم عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه ، فقد قال كل منهم لقومه :

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾^(٧) .

(١) النساء ١٣ (٢) النساء ٦٩ (٣) النور ٥٢ (٤) الأحزاب ٧١
 (٥) الفتح ١٧ (٦) الحجرات ١٤
 (٧) الشعراء ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٩

وفيما حكاه عن عيسى بن مريم عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ﴾^(١) .

. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله .. ﴾^(٢) .

ويقول جل شأنه :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾^(٣) .

وكما قرن القرآن بين طاعة الله وطاعة رسوله ورتب عليهما من الثواب ما رتب فقد قرن كذلك بين معصيته سبحانه ومعصية رسوله ، ورتب عليهما من العقوبة ما شاء .

يقول الله سبحانه :

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾^(٤) .

ويقول جل شأنه :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً ﴾^(٥) .

(١) الزخرف ٦٣ (٢) النساء ٨٠ (٣) النساء ٦٤ (٤) النساء ١٤ (٥) الأحزاب ٣٦

ويقول عز وجل :

﴿ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾^(١).

ولأن معصية الرسول من معصية الله فقد صح أن تروى ، العقوبة على معصية رسله عليهم السلام . يقول سبحانه وتعالى :

﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً . ، فعصى فرعون الرسول ، فأخذناه أخذاً ويلاً﴾^(٢).

ويقول عز وجل :

﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخطاة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾^(٣).

وطلب من الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يتبرأ من عمل من يعصيه في قوله تعالى :

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين : فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون﴾^(٤).

ونجد في الكتاب الكريم . بجوار المطالبة بطاعة الله وطاعة رسوله المطالبة بطاعة أولى الأمر في الدولة الإسلامية .

(١) الجن ٢٢ ، ٢٣ (٣) الخاقعة ٩ ، ١٠

(٢) الزمل ١٥ ، ١٦

(٣) الجن ٢٢ ، ٢٣

(٤) الشعراء ٢١٤ - ٢١٦

ولكن هذه الطاعة مشروطة ألا يتنكب هؤلاء طريق الحق التي رسمها الله وبينها رسوله . ونصح القرآن أتباعه بأن يكون شرع الله الذي بلغه الرسول وفسره بستته الفعلية والقولية هو الحكم عندما يوجد خلاف بين جماعة المسلمين . وبهذا حدد المعالم . وأوضح أن طاعة أولى الأمر من طاعة الله وطاعة رسوله . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) .

ولم يفت القرآن الكريم أن يقيد الحاكم في استخدام سلطانه إذ أوجب عليه ألا يحكم بغير ما أنزل الله وشرع ، فإذا تنكب ذلك فهو كافر وظالم وفاسق وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) .

الإعراض عن اللغو

وذكر القرآن الكريم من أوصاف المؤمنين :

﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾^(١).

ويقول الراغب الأصفهاني في مفرداته :

[اللغو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر، وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً.

قال تعالى : ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ .

وقال : ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ .

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ .

ثم قال : ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به، ومنه اللغو فى الإيمان] .

ويترجع عندنا أن اللغو فى الآية التى صدرنا بها هذا الموضوع يشمل

كل ما لا يعتد به من قول أو فعل، فالؤمن ينبغى :

١ - أن يكون جاداً فى حياته، فلا ينفق وقته فيما لا يفيد، خاصة وهو

يعلم أن الرسول ﷺ أخبرنا بأن المرء سيسأل عن عمره فيم ضيعه .

٢ - وأن يكون لسانه عفيفاً فلا ينطق إلا بما يفيد أو يفيد غيره من

(١) المؤمنون ٣

إخوانه في الإنسانية ، خاصة وهو يعلم أن الرسول ﷺ وصف المؤمن بأنه غير فحاش ولا نمام ولا كذاب ، وأنه قال :

﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ﴾

٣ - وأن يكون رجل سلام في حدود المحافظة على دينه ، فلا يشارك في مجلس يسود فيه اللغو من الحديث :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾^(١) .

ولا يعير سمعه لمن يحاول أن يخوض في آيات الله ويهاجم دينه وشريعته امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾^(٢) .

العفة «الحفاظة على العرض»

وذكر القرآن الكريم من أوصاف المؤمنين :

﴿والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾^(١).

وبهذا النص المحكم أباح للمؤمن إشباع غريزته ومسيرة ما خلق عليه من طبيعة يشارك الحيوان فيها إبقاء على نوعه، واستمراراً لعمارة الكون ، وأقام في الوقت نفسه سياجاً قوياً بين هذه الطبيعة الحيوانية وما يجب أن يكون عليه الإنسان من تنظيم لنسله وتحديد للصلة بين أجياله المتعاقبة ، هذا التنظيم الذى يتمثل فى تشريعات النكاح التى يختص بها النوع الإنسانى دون سائر الحيوانات الأخرى.

وعن طريق هذه التشريعات تتحقق الأهداف التى تميز الحياة الإنسانية وترفع من مكانتها ، ومن هذه الأهداف التعارف بين أفراد النوع ، والذى لا يتم إلا بين قبائل وشعوب متميزة ولا ريب أن تحديد القبائل وتمايز الشعوب لن يكون إلا عن طريق الزواج المنظم والحفاظة على الأنساب وعدم اختلاطها وهو ما يفهم من قول الله تبارك وتعالى :

(١) المؤمنون : ٥ ، ٦

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا﴾^(١).

ومن الأهداف كذلك إشباع الميل الغريزي للأبوة والأمومة والذي لا
يتحقق مع المحافظة على كرامة الإنسان إلا إذا كانت نتيجة الصلة
المشروعة بين الرجل والمرأة وصدق الله حيث يقول :

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين
وحفدة﴾^(٢).

وقد صرح الكتاب الكريم بأن الصلة الجنسية المشروعة بين الرجل
والمرأة لا سبيل إليها إلا عن أحد طريقين: الزواج ونكاح ملك اليمين،
ولا طريق وراء ذلك .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فمن ابغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾^(٣).

ومن هنا كانت الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة عن غير هذين
الطريقين جريمة دينية وخرقية واجتماعية واستحق صاحبها العقوبة
الرائدة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة وذلك واضح من قول
سبحانه :

(٢) النحل ٧٢

(١) الحجرات ١٣

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾^(١).

ولا بد أن نوضح هنا أن إباحة الإسلام نكاح الرجل لأُمته ليس فيه امتهان لكرامتها كما يحلو للبعض أن يقول ، إما تقليداً لبعض الذين يحاولون جهدهم تصوير الإسلام وأحكامه تصويراً بعيداً عن الحقيقة لغرض في نفوسهم وإما جهلاً بحكمة التشريع السامية التي يهدف إليها هذا الدين الحنيف .

إن هذه الإباحة دليل واضح في نظرنا على سماحة الإسلام وسموه في المحافظة على الإنسانية وكرامتها في كل فرد من أفرادها ، فالأمة امرأة لها غريزة الأنثى التي لا بد من إشباعها إذا أريد الحفاظ على كرامتها وكرامة الجماعة التي تنتسب إليها . ومن هنا أباح الإسلام للرجل أن ينكح أُمته ، ورتب على هذا النكاح كل ما يترتب على زواج الحرة من نتائج ، فإذا ولدت منه فهو ولده ومنسوب إليه وهو حر ولا يلحقه رق ، وبمجرد ولادتها له تصير أم ولد ، وتضع أولى خطواتها على طريق الحرية ويزول عنها كل ما يميز الأمة الرقيقة من إباحة التصرف فيها

(١) النور ٢ ، ٣

بالبیع أو بالهبة أو نحو ذلك ، وتعنتق عتقاً كاملاً بمجرد موت سيدها
الذى استولدها فإباحة نكاحها له ليس فيها امتهان لأنوثتها وإنما فيه
التقويم الكامل لهذه الأنوثة وليس فيه استذلالها وإنما فيه التكریم لمعنى
الإنسانية فيها ، إذ يفضى السيد إلى أمته إفضاءً إلى زوجته الحرة وليس
فيه توثيق لرقها أو تضيق للحلقة حول رقبتها وإنما فيه تحطيم للأغلال
التي تقيد حریتها وفتح لباب هذه الحرية على مصراعیه .

مراعاة الأمانة والعهد

وذكر الكتاب الكريم من أوصاف المؤمنين :
﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾^(١).
والأمانات لفظ عام يشمل كل ما أؤتمن الإنسان على أدائه من حقوق ،
سواء أكانت لله سبحانه وتعالى أم لأحد من خلقه ، وسواء أكانت مالية
أو غير مالية .

والعهد لفظ شامل لجميع ألوان الارتباطات والالتزامات التي يجب
على الإنسان الوفاء بها .
وبتتبع الآيات الكريمة التي جاء فيها لفظ العهد أو الميثاق والذء
[هو عقد مؤكد بيمين] كما قال الراغب في مفرداته يمكننا أن نقسم
العهد إلى :

- ١ - ما يكون بين العبد وربّه عز وجل ويشمل :
- (١) ما أسند العهد فيه إلى الله سبحانه وتعالى ، سواء أكان عاماً كما
يؤخذ من قوله جل شأنه :
- ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ،
وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾^(٢) .

(٢) يس ٦٠ ، ٦١

(١) المؤمنون ٨

أم كان خاصاً كالذى نجد فى قوله تعالى :
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ،
وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ﴾^(١).

وفى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ
أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُم عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٢).

وفى قوله جل شأنه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٣).

(ب) ما أسند العهد فيه إلى الإنسان كما يؤخذ من قول الله تبارك
وتعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنُؤْتِيَنَّهُنَّ آتَانًا مِّن فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِّنَ
الصَّالِحِينَ﴾^(٤). وقوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا
يُولُونِ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾^(٥).

وقوله جل شأنه : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٦).

(٣) آل عمران ١٨٧

(٦) الأحزاب ٢٣

(٢) آل عمران ٨١

(٥) الأحزاب ١٥

(١) البقرة ١٢٥

(٤) التوبة ٧٥

٢ - ما يكون بين الإنسان وأخيه الإنسان سواء أكان بين فرد وفرد أو بين جماعة وجماعة [ويشمل ما يكون من عهود بين دولة وأخرى].

وكلا النوعين يندرج تحت قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر... والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾^(١).
وقوله سبحانه :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾^(٢).
وقوله عز وجل :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾^(٣).

(٣) التوبة ١-٤

(٢) الأنفال ٥٥، ٥٦

(١) البقرة ١٧٧

﴿ كيف يكون للمشرّكين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾^(١).

وأياماً كان نوع العهد فإن الوفاء به واجب ديني ، وقد عني القرآن الكريم ببيان ذلك في تعبيرات واضحة وأساليب مختلفة فنقرأ الأمر بالوفاء بالعهد في قوله تعالى : ﴿ وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾^(٢).

وقوله سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾^(٣).

وقوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾^(٤).

ونقرأ النهي عن عدم الوفاء بالعهد بسبب الخضوع لخرق المال وعرض الدنيا في قوله عز وجل ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾^(٥).

ويمدح الكتاب الكريم هؤلاء الذين يوفون بعهودهم ويقرر أنهم هم أصحاب العقول السليمة فيقول :

(٣) النحل ٩١

(٢) الأنعام ١٥٢

(١) التوبة ٧

(٥) النحل ٩٥

(٤) الإسراء ٣٤

﴿إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾^(١) .

وفى الناحية المقابلة فجدّه يصف الذين ينقضون عهد الله بالفسق فيقول :

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، يضل به كثيراً . ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾^(٢) .

ونجدّه كذلك يذم هؤلاء الذين تغريهم المادة فتطغى على إنسانيتهم إلى درجة ينسون فيها التزاماتهم ويتوعدّهم بعاقبة كلها سوء وخسران فيقول :

﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ، ولهم عذاب أليم﴾^(٣) .

ويقول أيضاً :

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن

(٣) آل عمران ٧٧

(٢) البقرة ٢٦ ، ٢٧

(١) الرعد ١٩ ، ٢٠

يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار^(١).

ويحكم بالنفاق على من لم يف بما عاهد الله عليه فيقول : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾^(٢).

أما الذى يكرر نقض العهد ولا يقيم له وزناً فقد حكم القرآن عليه بالخروج من دائرة الإنسانية كلها ، ونقرأ فى ذلك :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾^(٣).

وعنى القرآن الكريم ببيان أن العهود التى يربطها الإنسان مع أخيه الإنسان ليست بعيدة عن رقابة الله عز وجل . والوفاء بها جزء من طاعة الله ، ونقضها لا يتفق مع طبيعة الإنسان السوى وطالب بأن تكون العهود بين الناس بعضهم وبعض قائمة على الصراحة والوضوح ، بعيدة كل البعد عن الخداع والغش ونهى عن أن يستغل فيها مركز القوة من جانب ومركز الضعف من جانب آخر فتفقد معناها ويضيع أثرها .

(٣) الأنفال ٥٥ ، ٥٦

(٢) التوبة ٧٥ - ٧٧

(١) الرعد ٢٥

نقرأ ذلك كله في قول الله سبحانه :
﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ،
وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا
كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن
تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يلوكم الله به ، وليبين لكم يوم
القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾^(١) .

ثبات العقيدة

﴿ثم لم يرتابوا﴾

ومن مقومات الإيمان - في عرف القرآن الكريم قوة العقيدة وثباتها بحيث لا يعتريها ضعف ولا يتطرق إلى نفس صاحبها شك ، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(١).

وثبات العقيدة يعرف بأمارات وأدلة يجليها ما يصدر عن الإنسان من تصرفات تجاه أوامر الله سبحانه وتعالى ، وتعاليم رسوله ﷺ ، ونجد في القرآن الكريم مقارنة بين أصحاب العقيدة الثابتة والإيمان الذي لا تعتريه زلزلة ولا شك من ناحية ، وهؤلاء الذين نطقوا بكلمة الإيمان دون أن يكون لها صدى في نفوسهم من ناحية أخرى ، قارن بينهم في أمرين : أولهما : ما يكون من كل فريق بالنسبة لحكم الله ورسوله .

والثاني : يتضمن نوع الاستجابة إلى داعي الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه .

فبالنسبة للأمر الأول يقرر الكتاب الكريم أن أصحاب الإيمان الصحيح

(١) الحجرات ١٥

لا يسعهم إلا الخضوع والطاعة لكل ما يصدر عن الله ورسوله من حكم، ولا يقيمون وزناً لرغباتهم الشخصية إذا تعارضت مع ما يليه حكم الله عليهم : يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ﴾ ^(١) .

أما الفريق الآخر فيصفه القرآن في قول الله عز وجل :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾ ^(٢) .

ومن هذا البيان الإلهي يتضح أنهم لا يعنيه سوى ما يعود عليهم من عرض الدنيا سواء أكان في ذلك رضى الله أم غضبه .

وبالنسبة للأمر الثانى . نقرأ للمقارنة بين الفريقين في قوله تعالى :

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله

(٢) النور ٤٧ - ٥٠

(١) النور ٥١

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم فى ربهم يترددون ﴿١﴾ .

فالإيمان الثابت قوة تدفع صاحبها دائماً إلى طاعة الله والتضحية فى سبيل دينه دون تردد ، لأن الله ورسوله أحب إلى المؤمن من أهله وماله وولده والناس أجمعين ، بل أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه ، ولعل فى قصة السحرة الذين جمعهم فرعون بغية القضاء على دعوة موسى عليه السلام وما انتهى إليه أمرهم من إعلان إيمانهم وعدم الخضوع لتهديد فرعون ما يبرهن على قوة الإيمان ودفع صاحبه إلى التضحية فى سبيله بنفسه ، وقد حكى القرآن الكريم هذه القصة فى غير موضع ، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى

(١) التوبة ٤٤ ، ٤٥

السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ، قالوا : لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴿١﴾ .

ذلك هو أثر الإيمان الثابت فى نفوس أصحابه ، أما أصحاب العقيدة المزعزعة والإيمان الشكلى . فيحاولون دائما تبرير ما يصدر عنهم من عصيان وتخلف عن الطاعة ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ما يجلى ذلك فى كثير من آياته ، كقوله تعالى :

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾ ﴿٢﴾ .
وقوله عز وجل :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله جل شأنه :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن النافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴾ ﴿٤﴾ .

(١) الشعراء ٣٤ - ٥١ (٢) التوبة ٥٦ (٣) التوبة ٧٤ (٤) المنافقون ١ ، ٢

الجهاد في سبيل الله (*)

ومن مقومات الإيمان . الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١).

ويؤخذ من الآيات القرآنية التي طلب فيها الجهاد من المؤمنين أن معناه ليس مقصوراً على حمل السلاح ومحاربة العدو في سبيل الله وفي سبيل دينه . وإنما يشمل - مع هذا - المجاهدة واستفراغ الوسع بكل وسيلة من الوسائل للمحافظة على العقيدة . ورد كيد الكائدين لها .

وأقرب دليل على ذلك ، ذكر الجهاد في القرآن المكي ، وقبل أن يؤذن للمسلمين بالقتال في سبيل دينهم - فنقرأ في سورة النحل - وهي مكية ، قول الله تبارك وتعالى :

(*) جاء في مفردات الراغب :

والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ، ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

(١) الحجرات ١٥

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾^(١) .

وتقرأ فى سورة العنكبوت - هى مكية - قوله عز وجل :

﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين﴾^(٢) .
وقوله جل شأنه :

﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾^(٣) .
ويدل على ذلك أيضا قول الله سبحانه :

﴿يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾^(٤) .

وبالرغم من أن الآية مدنية فى كلا الموضعين اللذين وردت فيهما فإن الجهاد بالنسبة للمنافقين لا يشمل المعنى الاصطلاحي الفقهي للفظ الجهاد ، لأننا نعرف أن الرسول ﷺ لم يرفع سيفاً فى وجه المنافقين رغم فضيحة القرآن لهم وتعداده لقبائحهم ورغم ما ارتكبه من منكر فى حق الرسول ﷺ وفى حق جماعته من المؤمنين :

ثم هناك قول الله تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم

(١) النحل ١١٠ (٢) العنكبوت ٦ (٣) العنكبوت ٦٩ (٤) التوبة ٧٣

بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن
تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء
مرضاتي ﴿١﴾ .

فقد اعتبر القرآن الكريم الخروج من الوطن خوفاً من الفتنة في الدين
جهاداً في سبيل الله ، وليس من شك في أن هجرة المسلمين من مكة
إلى المدينة ، وما سبقها من هجرتهم إلى الحبشة لم تكن مصحوبة بقتال
وأن هؤلاء الذين فروا بدينهم تسللوا فرادى وكلهم ابتهال إلى الله أن
يتم رحلتهم بسلام قبل أن يعلم العدو برحيلهم فيقطع عليهم الطريق التي
بدأوها .

والجهاد في سبيل الله على الوجه الأكمل لن يتحقق إلا من مؤمن ملاً
الإيمان عليه قلبه ونفسه واستأثر حب الله وحب رسوله وحب دينه بكل
جارحة من جوارحه مما يجعله يقدم ماله ونفسه طائعاً مختاراً في سبيل
الله وهذه هي الحقيقة التي يعبر عنها قول الله سبحانه :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

(١) الممتحنة ١

والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴿١﴾ .

وقوله جل شأنه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (٢) .

وهذه الحقيقة هي التي تجعل المؤمن غير محتاج إلى ضياع وقت ولو في استئذان الرسول ﷺ دون أن يندفع إلى أداء واجبه المقدس ومجاهدة عدوه وعدو عقيدته ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾ (٣) .

وهذه الحقيقة - كذلك - هي التي تمكن المؤمن من الاستجابة لقول الله سبحانه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولوهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى ففة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (٤) .

(١) التوبة ٢٤ (٢) المائدة ٥٤ (٣) التوبة ٤٤ (٤) الأنفال ١٥ ، ١٦

ولقوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ ^(١) .

وكشأن الكتاب الكريم دائماً في عدم إغفال الطبيعة البشرية وما يعترئها في بعض الأحيان من تردد وضعف خاصة بالنسبة للتكاليف التي تؤول المشقة المادية جزءاً من مقوماتها ، فقد حجب الله المؤمنين في الجهاد بالأسلوب الذي يرضى كثيراً من النفوس وذلك قوله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تَحْبُونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ^(٢) .

وقوله جل شأنه :

﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيَكُمُ الَّذِي يَابِعْتُمْ بِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٣) .

(٣) التوبة ١١١

(٢) الصف ١٠-١٣

(١) الأنفال ٤٥

المسألة البناءة وعدم الاعتداء

ومن مميزات المؤمن ألا يعتدى على الغير ولو كان مخالفاً له في عقيدته وهي أعز شيء عنده ، ذلك لأن الإسلام لا يقر الظلم ولا يبارك العدوان ، وأن تعاليمه تدعوا إلى إشاعة السلام والأمن والطمأنينة بين عباد الله وإن تفرقت بهم السبل حتى في إباحته للقتال دفاعاً عن النفس وعن العقيدة ، نجد أن الهدف الذي يرمى إليه هو تأمين الحياة لكل إنسان دون إكراه ولا رهق ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾^(١).

ولم يغفل القرآن ما تميل إليه النفس البشرية من حب الانتقام عندما يعتدى عليها فدعا إلى كبح جماح هذه الرغبة في نفوس أتباعه في

(١) البقرة ١٩٠-١٩٣

الوقت الذى أباح لهم الانتصار من ظلمهم وأوجب العدل والمعاملة بالمثل
فى قوله تعالى :

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله
مع المتقين ﴾ (١).

وفى قوله سبحانه :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ (٢).

ولم يغفل الكتاب الكريم - كذلك - ما يكون من طبيعة البشر فى تبرير
ما يصدر عنهم من تصرفات ، ومحاولة إيجاد سبب يستندون إليه
لإشباع رغبة فى نفوسهم فأثار الطريق ، وحدد المعالم .

فى مثل قوله عز وجل :

﴿ ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن
تعتدوا ﴾ (٣).

والقرآن - كما يعرف قارئه ودارسوه - لم يفرض قيام المدينة الفاضلة
فى هذه الدنيا كما تخيل بعض الفلاسفة ، وإنما عالج الحياة الإنسانية بما
فيها من حقائق وطبائع ونزعات ورغبات وغرائز وميول عالجها بما
يصلحها ، وبما هو فى استطاعة البشر أن يفعلوه ويستجيبوا له ، ويهتدوا

(٣) المائدة ٢

(٢) النحل ١٢٦

(١) البقرة ١٩٤

الآن أن نتعرف على الطريقة التي رسمها ، القرآن الكريم لإنهاء النزاع بين أفراد بنى الإنسان والذي لا تخلو منه جماعة فى دنيا الناس .
والمتبع لتشريع الكتاب الكريم فى هذا الباب ، يجد أن إشاعة السلام والبعد عن العنف هو المنهج المفضل ، وأن الصلح والعمل على الوصول إليه ، هو الوسيلة الأولى التى أوجب القرآن على المسلم أن يبدأ بها ، ولا يباح له اللجوء إلى استعمال القوة إلا إذا فشلت كل محاولة لفض النزاع بالطريق السلمى .

نجد ذلك فى تشريع القرآن للجماعة الأولى فى الدولة الإسلامية وهى الأسرة ، حينما نقرأ قوله تعالى :

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾^(١) .

ونجده - كذلك فى تشريعه للجماعة المسلمة فى دائرتها الأوسع إذا ما دب خلاف بين طائفتين منها ، حين نقرأ قوله سبحانه :

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون

(١) النساء ١٢٨

إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿١﴾ .
ثم نجده في معالجة القرآن للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين وفي
أسوأ حالاتها وهي الحرب ، حيث يوجب على المسلمين أن يجنحوا
للسلم إذا جنح العدو لها حتى وإن ظن المسلمون أن عدوهم يريد أن
يخدعهم ، يقول الله عز وجل :

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع
العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ..﴾ (٢) .

والدعوة القرآنية إلى المسالمة ليست دعوة إلى الاستسلام والخضوع
لمنطق القوة ، لأن المسالمة التي يرتضيها ويتطلب بها هي المسالمة البناءة .
المسالمة التي تثمر الجو الصالح الذي ينعم فيه كل طرف من أطراف
النزاع بالطمأنينة والأمن ، ومن هنا كان العقو محموداً إذا أدى إلى
الإصلاح ، وقضى على أسباب النزاع ، وإلا فالانتصار وردع المعتدى
بالطريقة التي اعتدى بها دون تجاوز ولا طغيان هو الطريق إلى إيجاد
الجو المنشود ، يقول الله تبارك وتعالى في أوصاف الذين آمنوا وعلى
رهبهم يتوكلون :

﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ *

(١) الحجرات ٩ ، ١٠ (٢) الأنفال ٦١ ، ٦٢

* يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية .

«أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم وليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل
يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عقوا» .

﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب
الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما
السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق ، أولئك
لهم عذاب أليم﴾^(١).

(١) الشورى ٣٩ - ٤٢

العدل فى جميع أبعاده

والمجتمع المؤمن مجتمع مثالى قدر استطاعة أفرادہ، مثالى بالنسبة للبناته التى تكونہ، ومثالى بالنسبة لكل ما يتصل به من قريب أو بعيد. إنه مجتمع يقوم على قواعد العدل فى جميع أقطاره فيعمه الأمن، ويشعر كل فرد فيه بالطمأنينة والثقة.

والعدل : هو إعطاء الحق لصاحب الحق ، سواء أكان هذا الحق مادياً أم معنوياً ، وقد عنى القرآن الكريم بتوضيح وجوبه على المؤمن فى كل تصرف يصدر عنه ، والقانون العام فى ذلك هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون﴾^(١).

وبالرغم من وضوح هذا القانون وشموله ، فإن كل نوع من التصرفات يتصور فيه الانحراف عن الجادة ، قد حظى من القرآن الكريم بلفتة كريمة تؤكد المعنى المراد وتحذر من اتباع الهوى ، وتخفف من غلواء العداوة والكراهية بين أفراد بنى الإنسان ، فالقرآن يبيح للمسلم أن يعدد زوجاته إلى أربع فيقول : ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾^(٢).

(٢) النساء ٣

(١) النحل ٩٠

ولكن تعدد الزوجات فى البيت الواحد وفى رعاية رجل واحد فيه مظنة التفرقة بينهن فى المعاملة ، وفى التفرقة ظلم بين لمن قل حظها ولذا نجد القرآن الكريم يردف هذه الإباحة بما يوجب العدل وبأسلوب حكيم يوجه المسلم إلى أن مجرد خوفه من عدم العدل ينبغي أن يكون مانعاً له من التزوج بأكثر من واحدة وذلك لقوله سبحانه وتعالى وفى نفس الآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ .

ونقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١) .

وبجانب هذا التوجيه العام والأمر الواضح بالعدل فى الأحكام نجد الكتاب الكريم يعنى بالمعانى النفسية التى قد تؤثر فى النفس فتميل بها عن الطريق السوى وينبه إلى وجوب التغلب عليها فى سبيل أداء الواجب وإشاعة العدل بين عباد الله ، يقول جل شأنه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا

فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿١﴾ . ويقول عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ ﴿٢﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ ﴿٣﴾ .
ويدعو القرآن إلى توثيق الدين حفظاً للحقوق وإغلاقاً لباب الشر الذى تهب ريحه بسبب الخلاف بين الدائن وبين المدين فنقرأ فيما يوصى به : ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ .

كما نقرأ فى نفس الموضوع فى نفس الآية :
﴿ وليمل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل ﴾ ﴿٤﴾ .

وحفاظاً على الحقوق كذلك ، أوجب القرآن الشهادة فى كثير من أنواع التعامل بين الناس ، ولتكون الشهادة مقبولة لدى الطرفين وقاطعة النزاع بينهما ، كان لا بد من أن يكون الشاهد من أهل العدل حتى لا يحدد عن طريق الحق لهوى أو إغراء .

(١) النساء ١٣٥ (٢) المائدة ٨ (٣) الأنعام ١٥٢ (٤) البقرة ٢٨٢

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾^(١).

ويقول جل شأنه فى شأن المطلقات طلاقاً رجعيّاً :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذُوَى عَدْلِ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَمُ يُوعِظُ بِهِ ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾^(٢).

ويرسم الله سبحانه الطريق المثلى لفض المنازعات التى تقع بين طوائف الجماعة المؤمنة فيقول جل شأنه :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(٣).

وبذلك أوجب ألا تتغنى الرغبة فى إصلاح ذات البين على مراعاة العدل وإعطاء كل جانب حقه .

الإِخْلَاصُ لِلَّهِ

ومن مستلزمات الإيمان بوجود الله ووحدانيته أن تكون عبادة الإنسان خالصة له وحده سبحانه وتعالى ، وأن يقصد بكل تصرف يصدر عنه وجه الله العلى الكبير ، ومن هنا كان الخطاب الإلهى للرسول ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (١) .

وكان الأمر الإلهى الموجه إليه ﷺ فى قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) .
وقوله جل شأنه : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى ﴾ (٣) .
ومع أن خطاب الرسول يعتبر خطاباً لأُمَّته فإن القرآن الكريم قد عمم الخطاب فى قوله عز وجل :

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) .
وفى قوله جل شأنه :
﴿ هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

(٣) الزمر ١٤

(٢) الزمر ١١

(١) الزمر ٢ - ٣

(٥) غافر ٦٥

(٤) غافر ١٤

وفى قوله سبحانه :

﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾^(١).

والإخلاص لله في العقيدة فطرى في النفس، تتوجه إليه عندما تتخلص من مؤثرات البيئة، وخاصة عندما يقع الإنسان في مأزق ويحاط به ويتأكد ألا ملجأ من الله إلا إليه، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾^(٢).

وفى قوله عز وجل :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾^(٣).
وقوله جل شأنه :

﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٤).
وقوله كذلك :

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٥).

(٣) الإسراء ٦٧

(٢) يونس ٢٢

(١) الأعراف ٢٩

(٥) لقمان ٣٢

(٤) العنكبوت ٦٥

فالفارق بين المؤمن وغير المؤمن يتجسم في أن غير المؤمن لا يرجع إلى فطرته ولا يؤمن بربه ، ولا يتوجه إلى الطريق المستقيم إلا تحت ضغط الظروف القاهرة ، ورجاء أن ينقذ نفسه مما أحاط به من هول ، وما تعرض له من أخطار ، فإذا زالت الغمة ، وتلاشت عوامل الرعب ضل الطريق مرة أخرى ، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق ﴾^(١) .
وفي قوله سبحانه :

﴿ ... فلما نجأكم إلى البر أعرضتم ﴾^(٢) .
وفي قوله عز وجل :

﴿ فلما نجأهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾^(٣) .

أما المؤمن فقلبه عامر بالعقيدة القوية في الله سبحانه ، سواء أكان في يسرٍ أم في عسرٍ ، وسواء أكان في البر أم في البحر ، وهو في تصرفاته كلها لا هدف له إلا ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه .

(٣) العنكبوت ٦٥

(٢) الإسراء ٦٧

(١) يونس ٢٣

الشكر أو الاعتراف بالجميل

ومن أهم المميزات التي تكون صورة المؤمن ، الشكر والاعتراف بالجميل لصاحب الجميل ، ولا يتحقق هذا الاعتراف إلا إذا آمن المرء بمصدر النعمة ومسديها ، وأيقن بالحاجة الدائمة إليه ، وعدم الاستغناء عنه ، ومن هنا كان الشكر مرادفاً للإيمان ، وكان عدم الشكر مرادفاً للكفر ، وهو ما تنطق به آيات الكتاب الكريم ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون ﴾^(١).

ويقول جل شأنه :

﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾^(٢).

ويقول عز وجل :

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنىٌ حميد ﴾^(٣).

ويقول سبحانه :

﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ﴾^(٤).

(١) البقرة ١٥٢ (٢) ابراهيم ٧ (٣) لقمان ١٢ (٤) الزمر ٧

ويقول أيضا :

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً ،
إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً﴾^(١).

ويحكي القرآن الكريم ما نطق به إبليس بعد أن طرد من رحمة الله .
فكان منه :

﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من
بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم
شاكرين﴾^(٢).

ويحكي الكتاب الكريم كذلك ما نطق به نبي الله سليمان عليه السلام
عندما رأى عرش بلقيس . وقد استقر عنده وأنه قال :

﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر
لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾^(٣).

ويقص علينا القرآن أيضاً قصة سبأ فنقرأ فيها :

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من
رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا
عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل

(٣) النمل ٤٠

(٢) الأعراف ١٦، ١٧

(١) الإنسان ٢، ٣

وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴿١﴾ .

والنعم التى توجب الشكر لله سبحانه وتعالى كثيرة متنوعة وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (٢) .

وكلها يتوقف عليها صلاح الحياة الإنسانية فى جانبىها المادى والروحى . وقد ذكر القرآن أهم أنواعها وطالب بالشكر عليها ، كما استكر الجحود وعدم الاعتراف بالجميل لمانحها ومعطيها ، وتتبع الآيات التى تحدثت عن هذه النعم يمكن أن نقسمها إلى :

(أ) نعم مادية .

(ب) ونعم معنوية أو روحية .

أما النعم المادية فنجد منها :

١ - نعمة الطعام الذى لا يعيش الإنسان بدونه ولا ينمو بدنه ولا يصح

إلا به . ونقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه :

(٣) البقرة ١٧٢

(٢) ابراهيم ٣٤ ، النحل ١٨

(١) سبأ ١٥ - ١٧

﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم مصدرين لهذا الطعام ، أما المصدر الأول ، فهو الأرض ، وذلك فى قوله عز وجل :

﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾^(٢) .
وقوله جل شأنه :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فممنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنتان من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ﴾^(٣) .
وأما المصدر الثانى لطعام الإنسان فهو الحيوان الذى ذلله الله له وسخره لنفعه . ويقول الكتاب الكريم فى ذلك :

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾^(٤) .

ويقول : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم ، فممنها ركبهم وممنها يأكلون ، ولهم فيها

(٣) يس ٣٣ - ٣٥

(٢) سبأ ١٥

(١) النحل ١١٤

(٤) الحج ٣٦

منافع ومشارب ، أفلا يشكرون ﴿١﴾ .

٢ - نعمة الماء الذى لا بد لكل حى أن يحصل عليه ، ويقول الكتاب الكريم : ﴿ أفرايتم الماء الذى تشربون ، أن أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولاً تشكرون ﴾ (٢) .

٣ - نعمة الليل والنهار ، وحاجة الإنسان إليهما معاً لتنظيم حياته والانتفاع بما وهبه الله من طاقة لا تحتاج إلى دليل . نقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ ﴾ ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون !! ؟

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾ .

٤ - ما أنعم الله به على الإنسان من تسخير للبحر ، وما يسر له فيه من طعام وزينة ، وما يجرى فوقه من فلك يستخدمها فى إشباع ميوله وتحقيق رغباته ، وقضاء حاجاته ، ويقول الكتاب الكريم فى ذلك :

(١) يس ٧١ - ٧٣

(٢) الواقعة ٦٨ - ٧٠

(٣) القصص ٧١ - ٧٣

﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(١).

ويقول :

﴿وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً . وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٢).
ويقول أيضاً :

﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٣).

وأما النعم المعنوية والروحية فأبرز ما ذكر القرآن منها :

١ - نعمة التعلم التى اختص الله بها الإنسان وجعلها من مميزاته ، وما وهب الله عباده من وسائل وسبل توصل إليه ، ونجد ذلك فى قول الله سبحانه :

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾^(٤).

(١) النحل ١٤ (٢) فاطر ١٢ (٣) الجاثية ١٢ (٤) النحل ٧٨

وفى قوله عز وجل .

﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون﴾^(١) .

وفى قوله جل شأنه :

﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلاله من ماءٍ مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(٢) .

٢ - نعمة الهداية والرحمة السابعة ، وتمثل فى التشريعات التى تصلح بها حياة الناس ، وفى التيسير عليهم ودفع الحرج عنهم ونقرأ ذلك فى قوله تعالى :

﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدةً من أيامٍ آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾^(٣) .

وفى قوله عز وجل :

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم

(٣) البقرة ١٨٥

(٢) السجدة ٧-٩

(١) المؤمنون ٧٨

إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴿١﴾.

وفى قوله جل شأنه :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴿٢﴾.

٣ - نعمة العون الإلهي وتمكين المؤمنين من النصر رغم قتلهم بالنسبة لأعدائهم في العدد والعدة . ونقرأ في ذلك قول الله سبحانه :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴿٣﴾.

وقوله جل شأنه :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم

(٣) آل عمران ١٢٣

(٢) المائدة ٨٩

(١) المائدة ٦

الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿١﴾.

وقد بين القرآن الكريم أن الشكر كما يجب لله عز وجل ، فهو واجب كذلك لكل من يسدى جميلاً للإنسان من بنى جنسه ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير﴾ (٢).

ولعل الاقتصاد على ذكر شكر الوالدين في هذا المقام إنما يرجع إلى أن إسداء الجميل منهما أمر مؤكد لا شك فيه ، ثم يقاس عليهما كل من أسدى معروفًا لغيره .

وإذا كان شكر الإنسان لله سبحانه يتمثل في الإيمان به وفي الطاعة التامة لأوامره والبعد عن حرمانه ، ولا يتصور فيه مقابلة الجميل بمثله ، لأن الله غنى عن العالمين ، ولأن الإنسان في فقر دائم إليه ، فإن شكر الإنسان للإنسان إنما يكون برد الجميل بالجميل ، ومحاولة الزيادة عليه قدر الإمكان اعترافاً بالفضل وتوثيقاً لرباط المودة ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن مما يشرح الشكر الذي أوجبه الله على الإنسان لوالديه ما جاء في قول الله سبحانه :

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك
الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً
كرهما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما
ربياني صغيراً﴾^(١).

ولعلنا لا نعدو الصواب كذلك إذا استشهدنا في هذا المقام بقوله عز
وجل :

﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل
شيء حسيباً﴾^(٢).

وإذا كان الشكر مرادفاً للإيمان كما بينا في أول الحديث ، فلا عجب
إذاً أن نقرأ في الكتاب الكريم ثناء الله على عبده ونبه نوح عليه السلام
بقوله تعالى :

﴿... إنه كان عبداً شكوراً﴾^(٣).

وثناءوه جل شأنه على أب الأنبياء وخليله إبراهيم عليه السلام بقوله
سبحانه :

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً
لأنعمه اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم﴾^(٤).

ولا عجب كذلك في أن يكون الشكر عنصراً هاماً من عناصر الرسالة

(١) الإسراء ٢٣، ٢٤ (٢) النساء ٨٦ (٣) الإسراء ٣ (٤) التحل ١٢٠، ١٢١

أمر به كل رسول من رسل الله .

وهو مصداق قوله تعالى في خطابه لخاتم الأنبياء ﷺ :

﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾^(١).

وفي ختام الحديث عن الشكر :

نذكر قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾^(٢).

فهنا نجد التقويم الإلهي للشكر الصادر عن الإيمان العميق والإحساس بالواجب ، في وقت بلغ الإنسان فيه أشده واكتملت قوته ، مما يمكن أن يكون سبباً للزهو والغرور ، ولكنه لم ينس خالقه ، ولم يتنكر لواجبه وامتلاً يقيناً بأنه في حاجة ماسة إلى رحمة ربه ، وفي حاجة إلى عونه في أداء ما ينبغي أن يكون عليه من شكر لنعمته ، وفي توفيقه لعمل الخير

(٢) الأحقاف ١٥ ، ١٦

(١) الزمر ٦٥ ، ٦٦

وفى تحقيق ما يرجو من صلاح لذريته ، إنه يؤمن بنعمة الله عليه فى
الماضى فيشكرها ، ويحس بحاجته إليها فى الحاضر فيتوجه إلى خالقه
يرجو أن يهبه التوفيق والهداية ، كما يحس بحاجته إليها فى مستقبله
الذى يتمثل فى ذريته ، فيدعوه إصلاحها وهدايتها .

قوة الإرادة وضبط النفس

ومن المقرر في عالم الفكر أن الإنسان (حيوان ناطق) وأن الفرق بينه وبين عالم الحيوان إنما يتركز في استخدام ما وهبه الله من قوة التفكير والتدبر ، يصلح عن طريقها شأنه ، ويتكيف بمعاونتها مع المخلوقات التي تشاركه الحياة في الأرض وتختلف طبيعتها عن طبيعته ، وتحقق بها مسؤوليته عما يصدر منه من تصرفات .

وهذا الذي يقرره العلم ليس غريباً على الذين يطلبون المعرفة عن طريق كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فنحن نقرأ فيه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾^(١) .

وقد لا يوجد مجال يتضح فيه الانتفاع بنعمة الفكر والتدبر كالمواقف التي تستدعي قوة الإرادة وضبط النفس ، لأنها تتطلب من الإنسان التغلب على طبيعته الفجة ، والترفع عن الخضوع لرغباته الجامحة

(١) الأعراف ١٧٩

وغرائره الحيوانية ، تتطلب منه أن يتحقق معنى الإنسانية في تصرفاته كلها .

وإذا كان المؤمن هو النموذج الحى للإنسان ، الحق فقد كان من الطبيعى أن يكون قوى الإرادة ضابطاً لنفسه ، ونجد فى توجيهات القرآن الكريم ما يطالبه بتحقيق ذلك فى المواقف التى ينبغى أن يسود فيها ، إن كل آية يطالب المؤمن فيها بالصبر فى ميدان الحياة العامة أو فى ميدان الحرب ، إنما هى دعوة إلى قوة الإرادة فى الإيمان بقضاء الله وقدره ، ودعوة إلى ضبط النفس وعدم انسياقها مع التيار الذى يجرفها إلى بحر اليأس والكراهية للكفاح ، ولنقرأ فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (١) .

وقوله عز وجل :

﴿ لبللون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٢) .

(٢) آل عمران ١٨٦

(١) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧

وقوله جل شأنه :

﴿ولنؤنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾^(١).

وقد يلت النظر أن الكتاب الكريم عنى ببعض نواحي الحياة عناية خاصة ، وطالب المؤمن فيها بضبط النفس وعدم الإقدام على ما يئليه عليه ميله الطبيعي فى كل مقام منها .

فعاطفة الكراهية بين شخص وآخر قد تدفعه إلى أن يغمطه حقه إذا أمكنته الظروف من ذلك ، إيلاًماً وانتقاماً منه ، وقد تدفعه إلى أن يتحين الفرص للاعتداء عليه ، ويعمل جاهداً لتبرير ذلك الاعتداء وإيجاد أسباب يستند إليها فى تصرفه ، ويعالج القرآن هذه الناحية فيحذر المؤمن من أن يخضع لعاطفته فى مثل هذه الحالات ، ويطلبه بأن يضبط نفسه ويحفظها فى حدود الإنسانية المحمودة ، يقول الله تبارك وتعالى فى الحالة الأولى :

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾^(٢).

ويقول فيها كذلك :

(١) محمد ٣١ (٢) المائدة ٨

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كثرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشرون بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾^(١).

ويقول عز وجل في الحالة الثانية :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(٢)

وعاطفة حب الذات وحب من تربطه بالإنسان رابطة قربة قد تدفعه إلى الانحراف عن الحق وتحريف الشهادة بحثاً وراء فائدة أو هرباً من خسارة لا تطيقها نفسه ، ويعالج القرآن ذلك أيضاً بالمطالبة باتباع العدل وعدم اتباع الهوى ، وفي ذلك من ضبط النفس ما لا يحتاج إلى بيان أو شرح.

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على

أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿١﴾.

وفى مجال المعاملة بين الناس بعضهم وبعض ، كثيراً ما يساء إلى الإنسان من غيره ويكون فى موقف يمكنه من الانتقام ورد الصاع صاعين وفى ذلك من تقطيع الأواصر وإضعاف المودة بين أفراد الجماعة ما قد يؤدى إلى فئائها ، ويعالج القرآن الكريم هذه الحالة بما يقضى على جرثومة العداوة ، ويشمر المحبة وحسن الصلة بين أفراد بنى الإنسان ويطالب المؤمن القادر على الانتقام ممن أساء إليه بأن يضبط نفسه ويعلوا عن مستوى العاطفة الطبيعية إلى مستوى الإنسانية فيقابل السيئة لا بالعمو فحسب ، وإنما يقابلها بالحسنة وإسداء المعروف ، ويوضح الكتاب الكريم أن هذا المطلب ليس سهلاً على كل فرد لما يتطلبه من مجهود لا يطيقه الإنسان العادى ، وذلك هو قول الله سبحانه :

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ ﴿٢﴾.

خاتمة

تلك هي الصفات التي لا توجد حقيقة الإيمان الكامل إلا بتحققها ولا يوصف ابن آدم بالإنسانية إلا إذا تحلى بها ، وبمجموعها :

١ - يكون المرء دائما على ذكر من ربه ، يرجو رحمته ويخاف عذابه ، ويتأمل مظاهر قدرته فيزداد إيمانه ، ويؤمن بحكمته وعدله فتتضاعف ثقته به ، ويرضى بما قسم له ويخلص عبوديته لخالقه فيناجيه في صلاته ويؤدي حقه كما أمر .

٢ - ويكون لبنة صالحة في بناء المجتمع الذي يعيش فيه ، يسعى لتقويته فيأمر بالمعروف ، وينقيهِ من عوامل الهدم فينهى عن المنكر ، ويتنفع بكل ما وهبه الله من نعمة بإعراضه عن اللغو فيما يقول وفيما يفعل .

٣ - ويكون مثلاً أعلى في حسن المعاملة ، فهو رجل سلام لا يعرف الاعتداء ، ومحترم لنفسه فلا يعرف الخنوع ، وعادل قدر استطاعته ، فلا يحس منه إنسان بظلم ، وله من قوة الإرادة ما يمنعه من الانزلاق إلى ما تدعو إليه الميول الدنيئة ، ومن ضبط

النفس ما يجعله بالصلابة والصبر إذا ابتلى ببعض الحشرات التي تنتمي إلى نوعه دون استحقاق .

٤ - ويعرف للعقيدة حقها ، فهي عنده أعز من نفسه وولده وماله ، لا يعوقه شيء من ذلك عن الجهاد في سبيلها شكراً لخالقه ، واعترافاً بفضله ، ومحافظة على أن تظل كلمته سبحانه في المكانة اللائقة بها تحقيقاً لقوله تعالى :

﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ .

نضرع إليه سبحانه أن يملأ قلوبنا بالإيمان ، وأن يوفقنا لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ .

الفهرس

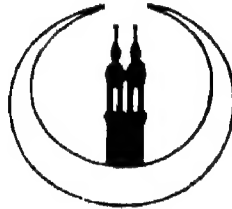
الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
مقدمة	٧
تحديد المعانى التى يعتبرها الكتاب الكريم مقومات للإنسانية الفاضلة	١٥
الإيمان	٢٥
الإيمان بالملائكة	٣٥
الإيمان باليوم الآخر	٤٣
صفات المؤمنين	٤٧
الخوف من الله ووجل القلوب عند ذكره سبحانه	٥٣
زيادة الإيمان عند سماع آيات الله	٦١
التوكل على الله	٦٩
إقامة الصلاة	٧٧
إيتاء الزكاة	٨٩
ولاية المؤمنين	٩٧
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٠٣
طاعة الله ورسوله	١٠٩

الموضوع	الصفحة
الإعراض عن اللغو	١١٧
العفة « المحافظة على العرض »	١١٩
مراعاة الأمانة والعهد	١٢٣
ثبات العقيدة	١٣١
الجهاد في سبيل الله	١٣٥
المسألة البناء وعدم الاعتداء	١٤١
العدل في جميع أبعاده	١٤٧
الإخلاص لله	١٥١
الشكر أو الاعتراف بالجميل	١٥٥
قوة الإرادة وضبط النفس	١٦٧
خاتمة	١٧٣
الفهرس	١٧٥

الكتاب القادم :

نافذة على الإيمان

تأليف الأستاذ
مصطفى محمد الحديدي لطيف



الأزهر
مطبعة المصحف الشريف

Bibliotheca Alevadrina



0290937

رقم الإيداع

٢٠٠٠ / ١١٥٤٩

الثنى بجنيهاً